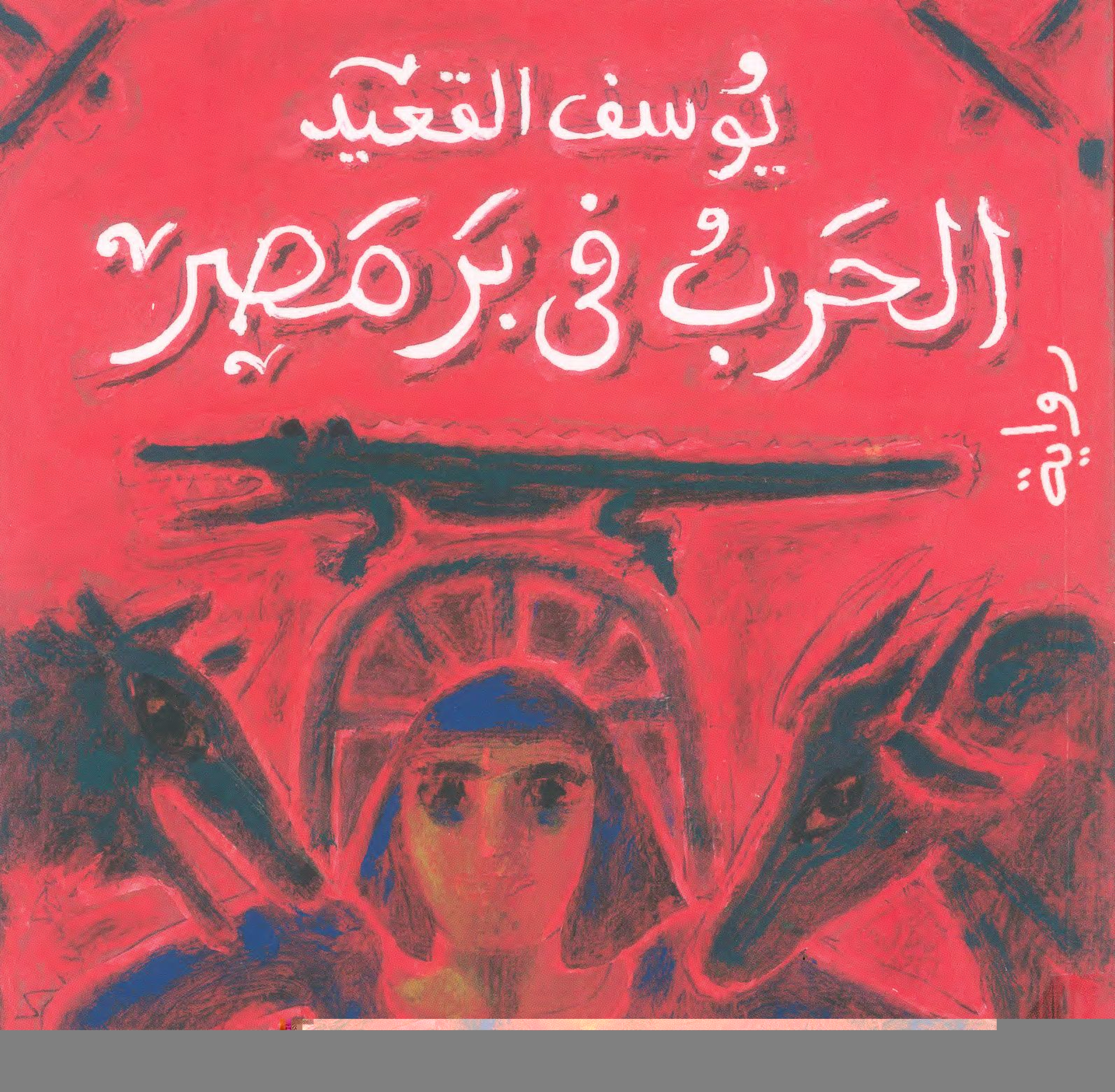

يوسف القعيد
الحربُ في برّ مصر
رواية

الحرب فى بر مصر

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ١٧٥٠٨/٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2513-2

© دار الشروق
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

يوسف القعيد

الحرب في بر مصر

رواية

دار الشروق

المحتويات

العمدة

لا أعرف بالتحديد من أين أبدأ الحكاية. كنت أتصور أن ليلة الأمس من الليالى التاريخية فى حياة العائلة. نمت وهذا الإحساس يسكر نفسى، ولكن ما حدث اليوم فرض علىّ حيرة غريبة، أيهما التاريخى: الأمس أم اليوم؟ لا أدرى. أمس كان يوما عظيما؛ أول يوم يدخل قلبى الفرح وتلمس نفسى السعادة منذ سنوات مضت. كرامتنا عادت إلينا. الأرض التى أخذوها منا سنة أربع وخمسين رجعت. الأمس يوم من الصعب وصفه. ولأن سعادتى بعودة الأرض ما بعدها سعادة أخرى فى العالم كله، تمنيت أن أموت ساعتها. فى اللحظة التى علمت فيها بصدور حكم القضاء العادل بعودة أرضنا إلينا، نظرت إلى الناحية القبلية، لا بد وأن قالب الطوب الأحمر الموضوع تحت رأس والدى قد ذاب الآن. قال لى قبل وفاته إنه لن يستريح وأرضنا مع الغرباء، وأن هذا القالب سيظل قطعة صلبة تسلبه راحة النوم الأبدى، لن يذوب إلا بعد الفرح الحقيقى. رجعت الأرض كلها، وانطلقت البنادق والزغاريد، ولم تسكت أصوات الفرح إلا بعد منتصف الليل، وفى آخر الليل كنت قد تعبت من كثرة الفرح، وأحسست أن عظام صدرى تشكو من خبطات قلبى عليها.

لحظة النوم، حذرتهم فى البيت من إيقاظى فى الصباح؛ ليتركونى أشبع

فى الغد. فلأستمتع إذن بكل ما كانت تمنحه لنا الحياة القديمة من كسل لذيذ وراحة حلوة. كل هذا حدث بالأمس. إن الزمن يجرى بسرعة غريبة. ساعة الفجر وقبل أن تنطلق الديوك فى منزلنا بصياح كل يوم. أمسكت فى صدرى سعلة، لم تتركنى إلا بعد أن أفرغت بطنى من كل ما فيها. لم يعرف النوم طريقه إلى عينى بعد هذا. ومن عادتى فى الفترة الأخيرة آن أقضى الليالى كلها فى حجرة زوجتى الأخيرة. وقد يقول البعض إنها المرأة الجديدة، وكل جديد وله طعمه الخاص. هذا غير صحيح؛ زوجتى الأخيرة ليست جديدة، لى معها سنوات ليست قليلة، ولكن سر تمسكى بالمبيت عندها أنى أستريح لها، أحب حجرتها أكثر من غيرها. بعد السعال هجم على صداع، فأس تضرب فى عظمة الرأس وطاسة المخ. قلت:

ـ يبدو أنى لن أنام مرة أخرى.

قمت، فتحت النافذة، قليل من هواء الليل الطرى وأستريح من الصداع والسعال. رأيت صفحة السماء هادئة ساكنة. كانت هناك نجمتان نسيها الليل مكانهما. وبحرى البلد رأيت النجمة أم ذيل وبجوارها عصاتين متعانقتين، وكان النور الذى هل على النافذة أزرق اللون، مشوبا برمادية ساعة الفجر الموحشة. لم يكن عندى ما أعمله إلى أن تطلع الشمس ويأتى موعد نزولى إلى الدوار.

ناديت الخادمة، حضرت. طلبت منها إحضار بعض الماء لأغسل وجهى وأتوضأ، أحضرت الإبريق والطشت النحاسى. صبت الماء على يدى. نزلت من الإبريق قطعة طين صغيرة، رأيتها فى كفى. لم أزعق أو أصرخ. سكت. قدمت لى زوجتى الشاى. أخذت الكوب المذهب، قربته من فمى، لمس زجاجه بين شفتى، سرح الشاى على لسانى، كان مرا، بسرعة أرجعته من فمى على الطبلية. نسيت زوجتى أن تضع السكر. قلت

لنفسى: اللـهم اجعله خيرا. خفت، وكان سبب خوفى أن أفراح الأمس جعلت الدنيا لا تسعنى، كسرت عين أولاد الكلب. رجعت الأرض وغدًا يعود لنا كل ما فقدناه. غير أن الدنيا عندما تقبل علىّ وتسلمنى نفسها، أخاف منها كثيرا.

أثناء صلاة الفجر أوشكت أن أخطئ فى تلاوة الفاتحة وقصار السور والتحيات. كان من الصعب علىّ أن أركز فى أمر من الأمور. ولكن عندما رفّت عينى الشمال، تأكد لى أنه لا بد من حدوث أمر ما. انتهيت من الصلاة وسلمت. سألت زوجتى عن اليوم. عرفت أنه ليس يوم جمعة. استرحت قليلا، فمن المعروف أن يوم الجمعة به ساعة نحس. أحضرت زوجتى صينية الإفطار. رفعت الفوطة ومن تحتها طلع علىّ البخار الأبيض من كوب الحليب وطبق البيض المقلى. نظرت فى الطعام. دارت عينى على البيض والفول والجبن وعيدان الجرجير الخضراء. لم أكن راغبا فى تناول الطعام. مددت يدى. قسمت أول رغيف إلى نصفين. قطعت من أحد النصفين لقمة غمستها، قربتها من فمى، حشرتها بين أسنانى، وبصعوبة قطعتها، ولم آكل سواها، غسلت يدى. شربت أكثر من كوب شاى.

قلت لزوجتى:

ـ الحمد للـه.

تحركت رموش عينيها حركة غير طبيعية. وتغيرت ملامح وجهها.

ـ هل فى الأكل شىء؟

ـ لا.

قلت لها إنه لا توجد لدى رغبة فى الأكل؛ لأننى لم أنم جيدا بسبب فرحتنا كلنا. ولكن الكلام لم يدخل رأسها. قالت لى إننى من ساعة

الفجرية وحالتى لا تعجبها. قمت. اتجهت إلى دولاب حجرة النوم لكى أرتدى ملابس الخروج. اقتربت منى، لمس صدرها الممتلئ عظام ظهرى. سبب ذلك لى ضيقا. كان صدرها متماسكا. كلما ضغطت على ظهرى ازداد ضيقى. التصقت بى أكثر. أصبحت أشعر بتضاريس الصدر ومنبت الثديين. تذكرت بلوتى وسكت. مدت يدها، تساءلت: هل أخرج بدون إفطار؟ تهت، لم أرد عليها.

خرجت، تركت الشقة التى بنيتها من أجلها. فتحت الباب، ودخلت البيت القديم. الحجرات كلها مغلقة ورائحة النوم تملأ الصالة. مررت على حجرة زوجتى الأولى، والتى يسمونها فى البيت بالست الكبيرة، وهى أم أولادى الكبار. أمامها حجرة زوجتى الثانية، ثم حجرات الأولاد. اتجهت إلى الحظيرة، البهائم نائمة تجتر أكل الليلة السابقة. الفك يتحرك ببطء وكسل، ولكن العين مغمضة، شبه نائمة، والمزاود أمامها خالية، تلمع قيعانها بعد أن نظفت البهائم بألسنتها كل ما فيها. كان الكلب يقظا. بمجرد أن وضعت قدمى فى الحظيرة جرى علىّ. عرفنى، هز ذيله، وحك نفسه فى رجلى، تممت على البهائم، ألقيت نظرة على المخازن: مخزن المحاصيل، مخزن الأسمدة، مخزن المبيدات، مخزن الآلات الزراعية. كلها مغلقة كما هى. ذهبت إلى الدوار. الوقت مبكر. لم يدهش أحد من نشاطى الغريب، فسره البعض بأنه نتيجة لعودة الأرض. قالوا إن الحياة نفسها عادت إلى وليست الأرض فقط. جلست أدخن سيجارة من سيجارة. حضر الخفراء، سلموا السلاح، وجبخانات الذخيرة. بعد التسليم حضر إلىّ الخفير النوبتجى. يقدم قدما ويؤخر الأخرى، يبدو خائفا.

أعطانى دفتر الأحوال، وبه الإشارات التى وردت إلى الدوار فى الليل. نظرت فيه بغضب، عندما قدم لى الإشارات بمفردها. طلبت منه قراءة الإشارات لى كعادته كل يوم، أصابت يده رعشة، تراقصت بعض الكلمات

على شفتيه. خطفت منه الإشارات. الإشارة الأولى كانت سبب خوفه؛ ابنى الصغير مطلوب للتجنيد. اتضحت الحكاية الآن. اليوم من لحظة بدئه إما أن يكون فى بياض الحليب أو فى سواد هباب الفرن. استرحت فى جلستى، تركت ظهرى يتراجع حتى استراح على المسند. طلبت بصوت سمعه الكل الرحمة لوالدى، كان يخاف دوما من الخير. لن أنسى كلماته أبدا. إذا وجدت الدنيا مقبلة عليك، وفى يدها اليمنى نعمة كبرى. لا بد وأن تكون يدها اليسرى خالية. هل تعرف لماذا؟ لأنها تأخذ باليد اليسرى ما أعطته باليد اليمنى. الآن عرفت أن والدى كان يعرف أشياء كثيرة لا أعرفها. الخفير يقف أمامى والإشارة فى يدى. لا أخفى عليكم لم أعرف كيف أتصرف. ترحمت على أيام الزمان الماضى. والدى كان يقدر على عمل المستحيلات. وأنا أيضا فى أيامى الأولى. فى الرأس مبادئ صداع. أصبح الفكر بحورا بعضها يطير بى إلى حافة الأفق البعيدة، والبعض يعيدنى لجلستى على المصطبة فى الدوار.

صرفت الخفير. ظلت الإشارة معى. انسدت الدنيا فى وجهى. عندما كان والدى يواجه موقفا مثل هذا، كان يضحك وعيناه اللتان فى خضرة الحقول وقت الربيع تلمعان. كان يبتسم ويقول إن طريق أبو زيد كله مسالك. فى موقفى هذا، لم يعد أمامى ولا مسلك واحد. حضر كاتب حجرة التليفون، فوجئ بوجودى فى هذا الوقت المبكر، وبجلستى التائهة وسط سحب الدخان، نظر فى وجهى، استعاذ بالله، وسألنى عن الأمر. لم تكن لدى رغبة فى الرد عليه، أكثر من واحد شرح له الحكاية.

أشاروا للورقة التى أمسكها بين يدى، نظرت إليه، غضبت لأنه ضحك. قال إن الأمر بسيط ولا يستوجب كل هذا التفكير. اقترب منى، قال كلمة واحدة:

ـ المتعهد.

لم أفهم ماذا يعنيه. أكمل إن المتعهد عنده الحل لكل المشاكل، مهما كانت صعوبتها. تذكرت الرجل الذى تقول عنه الناس فى الناحية كلها: المتعهد. لدرجة أنهم نسوا اسمه الأصلى. وهو متعهد أى شىء، ويستطيع فعل كل ما تطلبه منه. وهو فى الأصل مدرس ابتدائى، ألقى القبض عليه فى قضية رشوة أو تزوير، لا أذكر، وقدم لمحكمة البندر، ولأن حبال الحكومة طويلة، والمحاكم يومها بسنة، ظلت قضيته منظورة أمام محكمة البندر ومحكمة المديرية والمحكمة العليا فى مصر عددا من السنين. وأخيرا صدر الحكم ضده، استأنف ورفضوا استئنافه وتأيد الحكم ضده. فصل من عمله وزالت عنه صفة المدرس وبقيت له صفة المتعهد.

تركتكم فى الكلام. الغريب أن الشخص عندما يحكى حكاية تصبح الكلمات مثل حبات المسبحة فى يد إمام المسجد، كل حبة تشد الحبة التى وراءها، وهكذا يصبح من الصعب التوقف عند نقطة أو العودة لتوضيح موقف. فى اللحظة التى كان الكاتب يحدثنى فيها عن المتعهد وحل المشكلة، كنت مترددا. من ناحية كنت أود أن يذهب ابنى إلى العسكرية لكى يتعلم. إلى متى يظل مدللا؟ من المؤكد أننى لن أعيش له فى قمقم حتى آخر أيام العمر. فى يوم ما، سيجد نفسه وحيدا. ومن ناحية أخرى كان من الصعب علىّ قبول فكرة ذهابه بعيدا عن عينى يوما واحدا. كان آخر العنقود. بعد أن رزقت به، مرضت، سافرت إلى البنادر، كشف علىّ الحكماء وأعطونى أدوية لم تقدم لى الشفاء. زادت علىّ العلة. أدركت يومها أن أسوأ ما يصيب الإنسان فى حياته هو المرض. صحة الإنسان تساوى كل ما فى خزائن قارون نفسه. فى النهاية أجرى لى الحكماء عملية استئصال البروستاتا. قبلها، قالوا لى إن هذا هو العلاج الوحيد ولا يوجد حل آخر.

كتبوا لى إقرارا بأننى أوافق على إجراء العملية، وافقت. وأنا أمسك بالقلم لكى أكتب اسمى فى ذيل الإقرار قلت لنفسى:

ـ إن السر لا بد وأن يدفن فى بئر عميق، ويردم عليه. لا يقال السر لأى إنسان.

استئصال البروستاتا يعنى بالنسبة لى فقدان رجولتى. ولو علم الناس فى البلد، من الجائز أن يقولوا إنى لم أعد أصلح عمدة للبلد، وأن العمدة لا بد وأن يكون رجلا كاملا. هونت الأمر على نفسى. قلت إن الأولاد فى البيت مثل عدد حبات الأرز. ولكنى بعد عودتى إلى المنزل، حزنت على نفسى وازداد حبى لأصغر أبنائى. قال الناس فى البلد إن سبب هذا الحب، أنه ابن الزوجة الأخيرة، الفتاة التى فى سن أولادى. لكن أحدا لم يعرف السبب الحقيقى أبدا.

وأنا فى طريق العودة، احترت طويلا، عند أى زوجاتى الثلاث أقيم. استعرضت علاقتى بهن فى الفترة الأخيرة: زوجتى الأولى لا تطيق وجودى، والزوجة الثانية أصابها جرح بسبب زواجى بعدها، لم يبق سوى الثالثة. هونت الأمر. قلت:

ـ إن السر عندما تعرفه واحدة خير من إذاعته بين ثلاث.

تغيرت حالتى، قلّت ساعات نومى، أصبحت أصحوا أكثر من مرة بالليل، الحرمان من نعمة النوم جعل الليل يبدو فى نظرى كابوسا. نقلت الراديو إلى جوار سريرى. كنت أغضب عندما تُنهى المحطات إرسالها، وباقى أكثر من نصف الليل، علىّ أن أقضيه بمفردى. ترحّمت على أيام مضت، كان الليل بطوله لا يكفى لكى أنام فيه. ومع مرور الزمن، ازداد خوفى من زوجتى الأخيرة؛ من شبابها ونضارتها وصغر سنها. ولكن ذلك لم يكن مبررا للبعد عنها. إذ كيف أتركها بمفردها فى حجرة واسعة.

استعنت باللـه، وكنت أقضى العذاب الذى اسمه الليل فى حجرتها. كنت أسأل نفسى: لماذا يتعذب الناس بهذه الصورة؟ لماذا لا يموت الإنسان فجأة بدلا من هذا الموت البطىء؟

أعود لحكاية ابنى: لم أكن أقدر على البعد عنه لحظة واحدة. هأنذا أكرر العبارة نفسها التى كتبتها من قبل. هناك سبب آخر كان يدفعنى إلى التمسك به، وهو أن أخوته كلهم لم يذهبوا إلى العسكرية. ابنى البكر أعفى من الجهادية بموجب قانون أولاد العمد. أما الذى يليه، وهو الذى نسميه فى ريف مصر الذى فوق رأسه، فأعفى لأنه حفظ القرآن الكريم، وأصبح حاملا لكلام ربه فى صدره وسُمى فقيها. والثالث دفعت له البدلية عشرين جنيها، كل جنيه ينطح الآخر فى رأسه. وكان الجنيه أيامها مبلغا له قيمته العظيمة، قد تساوى عشرين من جنيهات هذه الأيام التى قل خيرها، وضاعت بركتها. ابنى الرابع، كانت أمه أحلى نساء البلد. آه! إن الزمان الجميل ذهب، وراحت معه أشياء كثيرة جميلة. هل يعود مرة أخرى؟ أعتقد، خاصة وأن بشائره هلت علينا هذه الأيام. وابنى الرابع طلقت أمه طلاقًا صوريًا على الورق ليس غير، وبعد وقوع الطلاق، أصبح هو العائل الوحيد لأمه المطلقة.

وهنا لا بد من التوقف أمام نقطة هامة، لكى نستمر معا بوضوح. أنا لا أخجل من نفسى وأنا أحكى هذا الكلام. ولكى تقدر شعورى بالضبط. هناك أمور لا بد أن نعرفها ونتكلم عنها من الآن. قد تغضب منى، وقد تتساءل: ألا يشعر هذا المصرى بالخجل والعار وهو يُهَرِّبُ أولاده من دفع ضريبة الدفاع عن الوطن؟ ويتفنن فى تهريبهم من التجنيد، لدرجة أن عمليات تهريبهم تعكس تطور قوانين التجنيد فى الفترة الأخيرة؟ ولك أن تكمل:

ـ ألسنا أبناء مصر؟ إنها بلدنا، ولا بد وأن ندافع عنها بالدم والروح. وأنا عمدة، أى أننى المسئول عن تجنيد كل أولاد الناس، فكيف أُهَرِّبُ أولادى؟ وماذا يقول أهل البلد عندما يشاهدون هذا بأنفسهم؟

أنا أتصور موقفك وأعرف أنك قد تصل فى بند التساؤلات إلى سؤال حاسم يقول:

ـ إن تهريب أولادى تم فى فترة خاضت فيها مصر ثلاثة حروب مصيرية وهامة.

وإزاء كل هذه التساؤلات يصيبنى اليأس من جدوى فهمك لى. لا أعرف هل ستكون لديك القدرة على الإحاطة بموقفى أم لا؟ ورغم كل هذا. فإنى أقول إننى وطنى أحب بر مصر، وعبادة وادى النيل تجرى فى دمى. وهذه العبادة ورثتها أبًا عن جد ، وهذا الحب عميق، بعيد الغور فى التاريخ، وأكثر أصالة من كلام أولاد هذه الأيام، الذين يحبون مصر بالخطب والكلمات. إنّ جَدَّ والدى كان واحدا من العساكر المجهولين الذين وقفوا بجوار أحمد باشا عرابى، يدافعون عن شرف مصر. وهذا أكبر دليل على الوطنية الصادقة، وحتى استشهاد أحد جذور عائلتنا فى هوجة عرابى لا أقوله لأحد، إنه سرى الخاص، هذه أول مرة أذكره فيها. لا بد وأن تعرف أننى الآن عمدة. كان والدى يقول إنه لو ذهب أحد منا إلى الجهادية لاهتزت شجرة العائلة وتقوست واقتربت من الأرض، ولما كان عمر هذه الشجرة يعود إلى زمن المماليك والأتراك فى مصر، فلا يصبح من حقى العبث به.

أنا شخصيا كان يسعدنى ذهاب أولادى إلى العسكرية، وهذا شرف فى حد ذاته. الخطأ الأول كان فى إعفاء الابن الكبير، وتبعته الحكاية. وكل

واحدكان يقارن نفسه بأخيه السابق. وعندما حاولت المناقشة كان الرد يأتى فى حدة السيف: إن أحدا لم يذهب إلى العسكرية من قبل، كنت أرد:

ـ الدنيا تغيرت وهذا يفرض علينا التغيير.

كان بودى أن يذهب الابن الصغير إلى الجهادية. ولكن ماذا لو قارنت أمه نفسها بالزوجتين السابقتين وطالبت بالمساواة بهما؟ وماذا لو وقفت فى مواجهتى وقالت:

ـ ألا يكفينى أننى أتحملك بعيوبك؟

هى الوحيدة التى تعرف السر، منذ عودتى لم أنم سوى فى سريرها، لأنها أجدع زوجاتى الثلاث. فى هذه الحالة فإن ذهاب ابنها إلى التجنيد قد يؤدى إلى انكشاف سرى، ليس فى منزلى وحده، ولكن فى البلد كلها. كيف نتصور نفسية أم يذهب وحيدها إلى النار؟ إن العسكرية فى هذه الأيام مختلفة عن أيامنا؛ الجيش مشترك فى حرب وضرب وقتال ولا يعرف إلا اللـه متى ينتهى، وهذا ما يدفعنى إلى ضرورة وحتمية التصرف. من يرمى ابنه للقتل؟ لا بد من المتعهد إذن. هناك أمر آخر، إن زوجتى الأخيرة منذ سنوات وهى تشتاق إلى أخ لابنها. لا أعرف الآن ما هو السبب فى عدم حملها، فى الريف تصبح هذه الأمور من الأسرار النسائية التى لا نتكلم فيها نحن الرجال. ولكننى بعد العملية وإخبارها بكت، قالت ليتنى كنت أعرف لأنجى ابنى من مرارة الوحدة طول عمره. هونت عليها، قلت لها إن له جيشا من الأخوة، فقالت ببساطة إنهم غير أشقاء.

وهكذا وجدت نفسى وسط هذه الدوامة، وقد أصبحت متأكدا من أمر واحد، وهو أن ابنى الصغير لن يبتعد عنى مهما حدث. اتخذت قرارى بالذهاب إلى المتعهد، استراحت نفسى. شعرت أننى وصلت إلى بر الأمان. سأعطيه مهما طلب، وسأكون معه بمعارفى وأصدقائى وعلاقاتى، وأهم

من كل هذا، بأموالى. نحن فى أيام شعارها معروف: معك قرش إذن تساوى قرشا. وأنا، والحمد لله، معى ملايين القروش. وما دام القرش أصبح رب هذه الأيام، فلن أخاف أبدا من أية احتمالات. وقريبا سيجرون عمليات جراحية للناس فى بلدى، يستأصلون فيها القلوب، ويعلقون مكانها جنيهات ذهبية تخفق بدلا من القلوب، وتدفع بالقروش الذهبية بدلا من كرات الدم الحمراء والبيضاء. وعندما يحدث هذا ستعود إلينا الهيبة والجاه ونصبح ملوك مصر من جديد. استرحت، قمت، دخلت البيت. كان ابنى الأخير لا يزال نائما. نظرت إليه، فار الدم فى عروقى، إنه ينام حتى أذان الظهر. قلت فى نفسى: والله لم يكن يصلح حاله غير الذهاب إلى الجبهة. ولكن ماذا يفعل الإنسان للظروف؟

طلبت من زوجتى أن تعد ملابس السفر، فأنا فى البلد أرتدى جلبابا مثل كل الناس، وإن كان جلبابى من قماش مستورد نادر الوجود فى الناحية كلها، ولكنى عندما أسافر ـ والسفر معناه ترك البلد إلى أى مكان آخر ـ أرتدى البدلة وأضع على عينى نظارة بيرسول آخر موديل، وأعطر جسمى بكولونيا، وأصبح أكثر أناقة من أى أفندى مهما كان منصبه ومهما ارتفع مرتبه. قلت لزوجتى إنى ذاهب إلى المركز. لا أحد فى منزلى يسألنى عن تحركاتى سوى زوجتى الأخيرة، وهذا امتياز أنا الذى منحتها إياه. لم تسألنى عن سبب الذهاب إلى المركز. فكرت أن أقول لها، لكى أبدو فى نظرها بمظهر الرجال الخطيرين القادرين على عمل المستحيلات. خفت أن تنتقل الكلمات من فم لآخر بعد أن يكون قد أضاف لها تفصيلات وزيادات من عنده. علّمنى والدى أن الحاجة إن خرجت من بين اثنين يصبح من الصعب قضاؤها. ونحن الأكابر أولاد الناس، الكل يحسدنا، ولهذا لا بد من السرية. عموما سيأتى يوم تعرف فيه كل ما فعلته، وهذا يجعلنى فى نظرها أضخم من الجبل وأقوى من الأسد.

طلبت سيارة مخصوصة، ووقفت أمام الدار أنتظرها. حضرت السيارة بعد قليل، ركبت، حضر معى كاتب حجرة التليفون. جلست على الكنبة الخلفية، والكاتب أغلق باب السيارة وركب على المقعد الأمامى بجوار السائق. نظر الكاتب فى وجهى فى المرآة، كنت عابسا، ضحك لوجهى فى المرآة. طوال الطريق وهو يحاول أن يسرى عنى، ويقول إن المسألة بسيطة. لم أفكر فى الرد، ظللت صامتا. فى الطريق، لم أكن سعيدا أو حزينا. رآنى كثيرون من أهل البلد، أشاروا للسيارة، أوقفوها، سلموا على، واحد منهم قال إننى مسافر إلى مصر لأشكر الكبار فى الحكومة على رجوع أرضى إلىّ، سكت، لم أنفِ كلامه ولم أؤكده. قلت إن هذا أحسن، وهو يصرف الخلق عن محاولة معرفة السبب الحقيقى لسفرى.

فى الطريق مرت السيارة على بعض أجزاء من الأرض التى عادت إلىّ، ذكرتنى بكل أحداث الأمس. رجعت بذهنى إلى والدى. قبل أن يموت قال لى: إن حقنا لا بد وأن يعود إلينا ذات يوم. قلت له: الغيب علمه عند الله وحده. الحكاية مرة، وما دامت المرارة قد ذهبت مع أيامها التى لن تعود، لا بأس من حكايتها هنا، على سبيل التسلية. بعد حركة الجيش بحوالى عامين، وزع والدى أرضه علينا، أنا وأخوتى الصبيان والبنات. ولكن كانت هناك قطعة من الأرض، اشتريناها حديثا وما زالت الإجراءات الخاصة بتسجيلها متعثرة فى طريقها الطويل، لهذا لم توزع هذه المساحة علينا.

ذات صباح حضرت إلينا لجان من حركة الجيش، معهم ضابط، قيل إنه مندوب القيادة. قالوا لنا: إنّ الأوراق الموجودة معهم تؤكد أن والدنا أصله تركى، وأنّ إجراءات حصوله على الجنسية المصرية غير قانونية، لهذا سيأخذون قطعة الأرض الجارى تسجيلها باسمه حاليا. أما نحن، فلأن أمنا مصرية وهى من أبوين مصريين وولدنا فى مصر، فلن يأخذوا ما معنا

من الأرض، سيكتفون بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى علينا، ومن توجد لديه مساحات زائدة من الأرض فسيأخذونها. ولم يتم الاستيلاء على أرض أخواتى البنات، وأخوتى الصبية لم يطبق عليهم القانون.

اختلف الأمر معى. الأرض المسجلة باسمى كانت كثيرة لأن والدى اختصنى بمساحات أكبر من الأخوة الآخرين، وزوجتى الأولى كانت تملك مساحة من الأرض، نقلتها باسمى بعد الزواج وأصبحت مملوكة لى رسميا. كل الأرض الزائدة أخذوها منى، أصبحت لا أمتلك سوى مائتى فدان فقط. يوم نزع ملكية الأرض منا، لم يتحمل والدى الموقف، أصيب بشلل، شُل نصفه الأيمن كله. لم يقدر على تحريك يده اليمنى أو قدمه اليمنى، حتى فمه لم يقدر على تحريك سوى نصفه.

كانت أياما عصيبة. الناس الذين كانوا يكملون عشاءهم نوما حَمّروا لنا أعينهم. منذ أيام قليلة، لم يكن أحد من أهل البلد يجرؤ أن يمر على والدى وهو يركب حماره. ياه! وهل أتكلم عن الأيام التى شاهدت فيها أبى وهو يربط من يعصى أوامره إلى شجرة الكافور، التى لا تزال فى مكانها نفسه أمام الدوار. إن الزمن غول رهيب. أتى رجال الجيش وأخذوا الأرض، وفى اليوم التالى بدأ الإجراء، والعمال والتملّية يغيرون معاملتهم لنا. تشفّى الناس من مرض والدى بصوت عال، أمامى أحيانا. أصبحت أنظر إلى الغد نظرة سوداء. كنت أخاف أن أموت قبل عودة أرضى إلىّ، لأن هذا كان معناه ببساطة أن يموت الإنسان وهو كافر بمعان كثيرة، أهمها: الإيمان أن الخير هو الذى ينتصر فى عالمنا. لكن يبدو أن اللـه سبحانه وتعالى لم يحب أن أقابله ونفسى مدمرة بهذه الصورة. وعلى غير توقع أتى الفجر مفاجئا.

صفيت الحراسات. عادت لنا مساحة من أرضنا، رفعت قضية أثبت فيها أن الدم الذى يجرى فى عروق والدى مصرى، وأن عائلتنا لم تعرف

الدم الأزرق أبدا، وأن مؤسس عائلتنا الأول كان مشرفا على بناء هرم خوفو الأكبر، وهذا ثابت تاريخيا وعلميا فى بعض الحفريات التى اكتشفت فى بداية هذا العام فى أحد حقولنا. بالأمس صدر الحكم بعودة الأرض لنا. دهشت من سرعة إصدار الحكم، فمن المعروف أن القضاء المصرى بطىء. ولكن يبدو أن هناك تعليمات صدرت بالسرعة فى إجراءات رفع الظلم عن المظلومين أمثالنا. عندما وصلنى خبر الحكم قلت: ليس مهما ما رجع ولكن الأكثر أهمية هو ما سيعود فى الأيام القادمة. عاد لى نشاطى القديم. ومن تحت ركام المظالم انبثقت نفسى القديمة. ها هى نشوة الزمان العظيم الذى مضى. يجب أن أستعد لترشيح نفسى فى انتخابات البرلمان القادمة. ولا بد من كنس الأولاد أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى العربى بضربة واحدة. حتى لو عرضوا علىّ الأمانة سأرفض هذا. إما أنا ، وإما هم. تكفيهم ستة عشر عاما مضت، خلا لهم فيها الجو وخطبوا وصفقوا. من يدرى قد يعين أحد أبنائى فى منصب كبير. أيام أولاد الناس فى الطريق إلينا.

كان والدى يقول إن الخلق فى بر مصر نوعان: أولاد الناس وأولاد الكلاب. فى الريف أولاد الناس من يمتلكون أكثر من مائة فدان للرأس الواحد، أما كل من لا يمتلك أية مساحة من الأرض فهو من النوع الثانى من الخلق. وبين الحدين سلم ضخم يقف فيه صغار الملاك والعمال والأجراء والعاطلون.

أنا أحكى كل هذا لكى تحاول معرفة إلى أى مدى كنت سعيدا ليلة الأمس. ولهذا ستصدقنى عندما أقول إن عينىّ لم تغمضا لحظة واحدة طوال الليل. وفى ظل الوضع الجديد لن يذهب ابنى إلى التجنيد. إن كنت قد عشت فى مصر قبل أربع وخمسين ستفهم كلامى وتقدره وستجد لى ألف عذر. أما إذا كنت من الذين رضعوا كلام هذه الأيام الغريبة مع

لبن أمهاتهم، فلن تحاول أن تفهمنى أو تعذرنى. أملى فى الأيام القادمة، ستجعلك تدرك حكايتى. إن جيلنا سيئ الحظ؛ حركة الجيش لم تأخذ منا الأرض والجاه والسلطان فقط، بالعكس، هناك ست عشرة سنة سقطت من العمر، كان من الممكن أن نفعل فيها الكثير لمصرنا العزيزة الغالية. الحمد للـه وحده. زال الكابوس وأتى لنا الأمان. تلاشى الحقد وبقى لنا الحب. متى تنتهى هذه الحرب التى لم يكن هناك مبرر لها، والسلام أجمل ألف مرة من الضرب والقتل؟

وصلنا إيتاى البارود. الكاتب دل السائق على بيت المتعهد. أمام البيت نزل الكاتب لكى يرى إن كان المتعهد موجودا أم لا. بقيت فى السيارة. فى الصباح اعترض الكاتب على حضورى بنفسى. عرض على أن يحضر المتعهد إلى البلد. رفضت؛ لأن زيارة المتعهد لى ستثير فضول الناس. الكل يعرف أن المتعهد لا يحضر إلا لعمل أشياء خارجة على القانون. كما أن حضوره فى أيام الفرحة العظيمة برجوع الأرض، سيجعل أعداءنا يشكون فى قرار عودة الأرض إلينا، ويلقون ظلالا من الرشوة والوساطة على القرار. وهذا قد يسبب لى أو لأولادى بعض المتاعب مستقبلا، من يدرى؟

أتى الكاتب. قال بصوت عال: تفضل. نعتنى بأوصاف الزمان الجميل الذى مضى. ألصق باسمى لقب البكوية الذى كنت قد نسيته، نزلت، سرت ببطء، وصلت حجرة الضيوف بمنزل المتعهد، جلست أنتظر، وضّح لى الكاتب الأمر، المتعهد كان نائما، حسدته على راحة البال، حضر المتعهد، فاحت من وجهه رائحة نوم النهار، عيناه منتفختان من كثرة النوم، فى خده الأيمن خطوط حمراء بالعرض أكدت لى أنه كان نائما فوق حصيرة وبدون وسادة، أو أنه تحرك أثناء نومه ووقعت رأسه من فوق الوسادة، وأنه لم يستيقظ، نام على هذا الوضع وقتا طويلا.

جلس أمامى. رحب بى. سألنى عن الأحوال. قال لى إنه يلْمحُ الضيق على وجهى، حكيت له الموضوع، أشعل سيجارة وقدم لى واحدة، لم أحب أن أغير نوع السجائر المستوردة الذى أدخنه خوفا من السعال. سألنى إن كنت قد أجلت لابنى التجنيد من قبل. أضاف أننى أعلم أولادى، تلك مسألة مؤكدة، وأن هذا الابن فى التعليم الآن، ومن حقه أن يؤجل تجنيده حتى يستنفد مرات التأجيل. ضحكت كى أسد الطريق على أبخرة الحزن والغضب التى تصاعدت فى صدرى، قلت له: للأسف إن الولد يعد طالبا فاشلا بكل المقاييس وأنه لم يحصل على الإعدادية، رغم أنى هيأت له كل الظروف المناسبة لكى ينجح فى تعليمه، ولكنه رسب سنة وراء سنة. دفعت له رسوم إعادة القيد. ولما تكرر الرسوب أدخلته مدرسة خاصة فى المركز، وبعد أن دفعت المصروفات، رفضت أمه أن يذهب إلى المركز؛ خافت عليه من أخوته الآخرين غير الأشقاء، وقالت إنها رأتهم فى الحلم يسممونه بسبب الغيرة منه وأنها لا تطيق فراقه، وإن كان هناك إصرار على تعليمه، فستذهب معه إلى البندر، رفضت ذهابها. بعدها بأيام، طلبت منى أغرب طلب يتصوره الإنسان: أصرت على أن تخرجه من المدارس لأنه سيرسب وهذا سيصيبه بحالة نفسية قد تؤثر على حياته. ثم إنه لو حصل على شهادة جامعية ماذا ستفيده؟ العمل خلق لمن لا يجدون ما يأكلونه فى بيوتهم.

كان المتعهد ينصت إلىّ وهو يدخن سيجارته الثانية، وينفخ الدخان فى الهواء ويتسلى بمراقبة حلقاته إلى أن تذوب فى هواء الغرفة وتتوه فيه. تكلم، قال لى إنه سيستفيد من عدم ذهاب ابنى إلى التجنيد استفادة ضخمة، إلا أن واجب المعرفة والصلة يجعله ينصحنى بأن ذهاب ابنى إلى العسكرية سيكون الفرصة الوحيدة لجعله رجلا. ولو لم يذهب إلى التجنيد ضاعت منى آخر الفرص. قلت إنى أقدر كلامه وأشكره عليه، ولكن

الناس أسرار، وعندى ظروف صعبة ومعقدة تدفعنى إلى التمسك به. ولو أتى طلبه فى غير أيامنا لقذفت به إلى النار.

لم يقتنع بكلامى، دخل فى صلب الموضوع، لامنى لأنى لم أحضر إليه منذ البداية. أبديت دهشتى فنحن الآن فى البداية، ولم أذهب إلى سواه. صحح لى معلوماتى، إنه يقصد بالبداية طفولة ابنى، كان من المفروض أن أحضر إليه بعد الولادة، وأقول له إنى لا أريد أن يذهب ابنى إلى العسكرية. يومها كان سيتصرف فى الأمر على هذا الأساس، وأن الأمر سيتم بدون أية مشاكل ولن يكلفنى مليما واحدا. بدأت الكلمات توقظه من نومه وكسله وفتوره.

هل تعلم - قال المتعهد - لماذا طلب ابنك إلى الجهادية اليوم؟ لأنه ذهب منذ أشهر إلى المركز واستخرج بطاقة تحقيق شخصية، لأن ضمن استمارات استخراج البطاقة استمارة ترسل إلى مكتب تجنيد الشبان فى القاهرة، لكى يتم الكشف بموجبها عن موقفه من التجنيد. وإن لم يكن قد جُنِّد، تُستخرج له بطاقة تجنيد فورا. لو عرفت كنت تصرفت مع أمين السجل المدنى، الحل سهل ومعروف، لا ترسل الاستمارة الخاصة بالتجنيد إلى مصر، ولن يعرف أحد عنه شيئا من الآن وإلى الأبد. إن تصرف ابنك دون الرجوع إليك، وبالتالى دون علمى بالأمر، خلق لنا وضعا نواجهه الآن، نسميه مشكلة، وهى تتطلب حلا، والحل صعب ولكنه غير مستعص، ولا يدخل فى بند المستحيلات، وسأتصرف فى الأمر وأرجو أن تطمئن.

استراحت عضلات وجهى، هدأت نفسى، قلت له إننا جميعا نخطئ وعليه وحده أن يصوب الأخطاء، وأننا نصنع الكثير من المشاكل لثقتنا المطلقة فى قدرته على حلها. قال إنه تحت أمرى. أخذ منى بيانات ابنى. طلب أن نعود بعد يومين. ذكره الكاتب بإشارة الاستدعاء.

قال المتعهد:

ـ إن العمدة قادر على تأجيلها أسبوعا، حتى يجد حلا.

ابتسم وظهرت أسنانه الصفراء وهو يوضح أن مندوب التجنيد معه فى كثير من الأمور، وأنه هو الذى سيتولى موضوع ابنى، تركته وسرت. تسرب القلق إلى نفسى، لم أكن مستريحا، لأن المتعهد لم يكن يبدو عليه الحماس، كل الذين تعاملوا معه قبلى يقولون إنه يؤكد لهم أن البحر ممتلئ بالطحينة. قد يكون السبب أنى عمدة، المفروض أنى الحكومة نفسها، وربما أخافه حضور الكاتب معى، وجوده يعد شهادة ضد المتعهد، فقررت إرسال الكاتب له ليطمئنه ويفهمه أنى تعودت ألا أذهب أى مشوار بمفردى، وقد تعودت أن يكون معى خفير أو كاتب.

فى البيت لم يعرف أحد أى خبر عما حدث، خرجت إلى الدوار، نبهت على الخفير النوبتجى والكاتب بعدم معرفة أحد أى شىء عن الإشارة. ضحك الكاتب، قال إن الإشارة كأنها لم تكن، وهى لم تصل ولم تثبت فى الدفاتر والأوراق الرسمية. كانت هناك بعض المشاكل المعلقة صرّفتها، أحضر لى كاتب العزبة بيان الأرض التى ستعود إلىّ بموجب الحكم القضائى العادل، علىّ أن أستعد لاستلامها. كان مرفقا بالبيان كشف بالفلاحين الذين يزرعون الأرض منذ أن نزعت ملكيتها منا؛ البعض يزرعها بموجب عقد إيجار، والبعض الآخر يضع يده عليها بالشراء، اشتروها بالتقسيط المريح وبأثمان تافهة.

نظرت فى الأوراق. غدا سأرسل الكاتب إلى المحكمة ليعرف متى تكون صورة الحكم جاهزة حتى نستصدر قرار التنفيذ. خلال هذه الفترة لا بد من جس نبض الناس، لا أعرف إن كانوا سيتنازلون عن الأرض بالمعروف والمودة أو أنى سألجأ إلى البوليس، وهو موجود والحمد لله، ولا

عمل له سوى رد الحقوق للمظلومين من أمثالنا. سأرفض تسلم الأرض وعليها مستأجر، لو حدث هذا سيكون عدم وجودها أحسن، الفدان إيجاره ثلاثون جنيها فى السنة، تخصم منها الضرائب بأنواعها والرسوم والمال المتأخر. إن تسلمت الفدان وأدخلته ضمن مزرعتى الضخمة وزرعته بنفسى حصلت على خمسمائة جنيه صافية فى السنة. وإن قبلت تسلم الأرض وعليها مستأجرون لن أتمكن من إخراجهم منها. مطلوب وضوح موقفى. وإن كنت أعتقد أن القوانين التى تحدد العلاقة بين المالك والمستأجر لا بد من تغييرها. هل كان يُصدق أحد عودة الأرض إلينا؟ ما دام المستحيل أصبح ممكنا فإن هناك الكثير من الأمور المعوجة ستعود إلى أصولها القديمة. أجدادنا هم الذين قالوا إن من يعرف فضيلة الصبر لا بد وأن ينال كل ما يريده.

أتى الليل. لم يكن عندى فى الدوار ضيوف. قلت فلأتناول العشاء فى البيت. تعودت تناول طعامى فى الدوار إن كان عندى ضيوف. إنها ليلة زوجتى الجديدة، التى ستظل جديدة إلى أن أتزوج عليها، وحيث أن هذا لن يحدث، ستبقى لها هذه الصفة. دخلت. أثناء مرورى على شقة الست الكبيرة كانت تقف على بابها، شاهدتنى، زامت. تذكرت موضوع ابنى، قلت لنفسى: لو انكشف الأمر سيكون هؤلاء أول الشامتين. أكلت وشربت الشاى، حمدت الله. جلست بجوار زوجتى. حكيت لها ما حصل. أكدت لها أن ابنها لن يبتعد عنها، أحسست وأنا أتحدث معها أنها صغيرة وأنها عاجزة عن فهم معنى ما حدث، شعرت أنى ظلمتها فهى لا تعرف الكثير عن دنيانا.

فى الغد، ذهب الكاتب إلى المتعهد، عاد، طمأننى. قال لى إنه شعر من حديثه معه أن المتعهد سيضرب فى العالى عندما نصل إلى دور الحساب ودفع الأتعاب. فى الموعد ذهبت إليه. استقبلنا مثل المرة السابقة. يبدو أن

المتعهد يتعامل مع الدنيا بدون حماس. قال لى إن هناك حلين للمشكلة: الأول سهل ومضمون ومأمون، والثانى صعب ومعقد. الحل السهل تكاليفه بسيطة وهو يتلخص فى استخراج أوراق لابنى يسافر بها خارج البلاد، ويبقى هناك إلى أن يموت موضوع التجنيد ثم يعود. رفضت هذا الحل بدون مناقشة. كيف يسافر خارج البلاد؟ لن يبتعد ابنى عنى وهذا أساس مبدئى. قال: الحل مرفوض إذن.

تحدث عن الحل الثانى فشرح لى عملية صعبة لم أفهمها، وعندما اتضحت لى معالمها دب الخوف فى قلبى. كان من الواضح أن هناك عناصر غريبة من الناس ستدخل فى الموضوع. ولكن ماذا أفعل؟ المحتاج دائما فى موقف صعب. فكرت فى تأجيل الاتفاق للغد حتى أخلو إلى نفسى وأستوعب الحكاية بهدوء. الكاتب رجانى، المسألة لا تستحق تعكير الدم والموضوع اقترب من نهايته الموفقة. قبلت شروط المتعهد، توقفت أمام الشرط الأخير الخاص بأن يعيش ابنى بعيدا عن البلد حتى ينتهى الأمر. ضحكت وقلت من الممكن أن يبتعد ابنى عن البلد أسبوعين أو شهرا. نظر إلىّ المتعهد وقال ببطء وبصوت منخفض إن غربة ابنى عن البلد ستطول وقد تصل إلى خمس سنوات، وأنه يفعل هذا لكى لا تنكشف المسألة. وجود ابنى فى البلد يعد شاهد إثبات ضدى يدخلنا جميعا السجن. قلت له إننى كنت أرغب فى عمل آخر، محاولة معه حتى يحصل على الإعدادية من المدارس الخاصة. أىُّ مدرسة - صاح المتعهد - على الورق من المفروض أن يكون ابنك فى الجيش لا مدارس ولا تعليم. ضحك المتعهد، قال إن الإعدادية أو الثانوية ليست مشكلة. الشهادات تباع فى مصر، وهو شخصيا يعرف طبيبا عنده مخزن شهادات فى العباسية بمصر، كل شهادة بثمنها، ويؤثر فى الثمن نوع الشهادة وسنة الحصول عليها والتخصص والمجموع. ركبنى

ضيق لا أستطيع وصفه. إننى أرتكب بها أفعله أكبر خطأ، أخرجت ابنى من العسكرية لأسلمه لوضع بلا مستقبل.

رجعت لأمه، حكيت لها ما حدث، اقترحت عليها الذهاب إلى بلد أهلها. فوجئت بها ترفض، فهى تخاف على نفسها وعلى ابنها. عائلتها كبيرة متشعبة، ولها الكثير من العداوات وعليها حالات ثأر. لم أصدق نفسى عندما قالت إنها تريد الذهاب إلى البندر تستأجر شقة وتعيش فيها هى وابنها، وأسافر إليها ثلاث مرات فى الأسبوع، أو أشترى سيارة وأسكن فى البندر وأحضر إلى البلد كل يوم، شعرت أنها تضحك على، فهى تعرف أننى لا يمكننى العيش بعيدا عن البلد، أنا مثل السمك، البلد هو البحر الواسع، إن ابتعدت عنه لحظة مت. لا حياة لى إلا هنا. ثم كيف أترك البلد وأيامنا الخضراء أصبحت على الأبواب، ها هى بشائر السعد تطل علينا لأول مرة. دخل قلبى الشك فيها، إنها هنا تحت عينى ولا يستطيع أن يتسلل أحد إلى حجرتها، من يدرينى ماذا يحدث لو ذهبت إلى البندر هى وابنها الذى لا يعتمد عليه.

أطلت التفكير. لو عرفت أن المسألة ستصل إلى هذا الحد، لفضلت ذهاب ابنى إلى التجنيد. دخلت حجرة نومى، حاولت النوم، لم تغمض عينى، تقلبت، سمعت اهتزاز السرير تحتى، فذكرنى باهتزازاته أيام كنت رجلا حقيقيا، فكرت فى الجانب الآخر الذى لم أتطرق إليه حتى الآن، كان على أن أبحث للمتعهد عن شاب فى سن ابنى مولود معه فى يوم واحد وله ملامح قريبة منه، لكى يذهب إلى التجنيد بدلا من ابنى. بمجرد عودتنا أمسك الكاتب بدفتر مواليد البلد. جلس يدرس.

أتانى ومعه ورقة صغيرة فيها اسم «مصرى». غضبت، طلبت منه البحث عن اسم آخر. لو قلت لكم على السبب لضحكتم ورفضتم

تصديقى. «مصرى» هذا ابن خفير نظامى فى المعاش، وهو معروف فى البلد كلها بذكائه، وتفوقه. دائما الأول فى المدرسة، وأنا لا أخفى إعجابى الشديد به. كم من مرة حسدته وتمنيت أن يكون أحد أبنائى، وضربت كفا بكف من أحوال الدنيا غير المفهومة، إنها تعطى الحلق لمن لا أذن له. فى العام الماضى ترك «مصرى» المدرسة؛ لأن كل أخوته من البنات، والده لا يستطيع مواصلة تعليمه فى البنادر، ومعه ثلاثة أفدنة بالإيجار من الإصلاح الزراعى تحتاج لمن يرعاها. جلست أفكر فى تصاريف العالم. ابنى الذى أقدر على تعليمه ولو فى الصين فاشل، وهذا الشاب الذى لا يجد بدلة جديدة ناجح ومتفوق، بخصوص التجنيد يعد معفى لأنه الابن الوحيد على خمس شقيقات، وابنى الذى يحتاج لإكمال تعليمه لا بد من تجنيده. عاد الكاتب يقول إن أنسب واحد هو «مصرى». رجوته البحث عن غيره فأنا إنسان وفى صدرى قلب، وفى القلب رحمة بالناس ولا أحب ظلم أحد. قال لى الكاتب إنه من ناحية وجود شبان غير «مصرى». هناك الكثيرون. قدم لى كشفا بمواليد اليوم الذى ولد فيه ابنى من الذكور. بعد استعراض الأسماء والعائلات وجدت أن الوحيد المناسب هو «مصرى».

الكاتب قال لى: لماذا أتردد؟ إننى بهذا أخدم «مصرى». الأرض التى يزرعونها ستأخذها الحكومة وتعطيها لى، ولن يصبح لهم مورد رزق سوى معاش والده، وهو لا يصل إلى ستة جنيهات. لهذا سيبحث «مصرى» عن عمل وإن لم يجده إلا بواسطة سيتطوع فى الجيش. وعندما أرسل «مصرى» إلى الجيش بدلا من ابنى أعطيه بذلك فرصة نادرة لكى يعيش ويفتح بيتهم، هناك سيأكل ويشرب ويسكن ويتسلم ملابسه وعلىّ أنا مراعاة أهله هنا. هل كانوا يحلمون بهذا؟

طمأننى الكاتب. قال إن الخدمة فى الجيش هى الوسيلة الوحيدة للحصول على وظيفة مضمونة. يوجد نظام فى القوات المسلحة إن من

يخدم فيها لا بد من تعيينه فى وظيفة ثابتة على درجة حكومية بمجرد انتهاء خدمته. وان كان لا يحب الخروج من الخدمة يجدد ويحصل على رتبة ومرتب عال. فى كل الأحوال ما سيحدث لمصرى يعد خدمة عظيمة. أقسم لى الكاتب بالطلاق شافعى ومالكى وأبو حنيفة أن مصرى كان يبحث عن استمارة تطوع فى الجيش، وذهب أمس إلى مكتب البريد يسأل عنها، وقيل له إن الاستمارة توزع بمعرفة مندوب التجنيد فى المكتب أو القسم، وسر الحكاية أنَّ عائلة «مصرى» سمعت خبر عودة أرض الإصلاح لأصحابها، فانسدت الدنيا فى وجوههم، وعرفوا حكاية الفلاح الذى رفض تسليم أرضه فى بلد مجاور، وقاوم قوات البوليس بالقوة فقتلوه. «مصرى» كان سيذهب إلى الجيش، سواء باسمه أو بدلا عن أحد، ولا يوجد فارق بين ذهابه متطوعا أو على أنه ابن العمدة.

لم أقتنع، تهت من التفكير بين الخطأ والصواب، مشكلتى أن ضميرى يقظ دائما، يحاسبنى على أصغر تصرف، وتلك هى بلوى أولاد الناس الذين وجدوا من يربيهم وينفق عليهم فى المدارس، بعكس الذين لم يتعلموا. ظل الكاتب يحدثنى، محاولا إقناعى بأن ما أفعله لمصلحة الخفير وابنه أولا، ولمصلحة ابنى ثانيا. أخيرا وبعد أن تعب الكاتب من الكلام وتعبت أنا من الإنصات وافقت.

قال الكاتب وهو يتركنى ذاهبا إلى منزله:

ـ إذن على بركة اللـه.

المتعهد

الأيام السيئة فائدتها الوحيدة هى النوم. وأنا أطبق هذه النظرية يوميا. أصحو من النوم لكى أنام مرة أخرى، وأظل نائما أتقلب على الجنبين اليمين والشمال والوجه والظهر مثل الطنبور الذى تعب وداخ من كثرة اللف حول نفسه، لا أصحو إلا عندما يتعبنى جسمى من كثرة النوم. عظامى مفككة، وعيناى متورمتان، وذهنى كأنه يطفو فوق سطح من الحياة الهادئة. وعندما يمر الناس أمام بيتى ويعرفون أنى نائم يقولون بصوت عال: نوم الظالم عبادة، مع أنى لم أظلم أحدا طول عمرى، حياتى كلها خدمات للناس. العادة أنه بمجرد أن تحل مشكلة لأحد، وتصل إلى لحظة دفع المعلوم، أصبح ظالما فى نظره.

اليوم كنت نائما كعادتى، أحلم نفس الحلم الذى أعيشه ويسعدنى ويقلل من بؤس حياتى كلما أغمضت عينى: كأن مدير التربية والتعليم يعتذر لى فى حفل عام، ويطلب منى العودة إلى العمل فى ميدان التعليم، بسبب أقدميتى، اشترطت العودة ناظر مدرسة فورا، وافق المدير العام على كل شروطى، اعتذر مرة ثانية، قال لى إنه يعتذر باسم وزارة التربية والتعليم، تنازلت ، قلت إنى أقبل الاعتذار، وسأذهب إلى المدرسة من الغد. وفى هذه اللحظة الحلوة صحوت من نومى على صوت بوق سيارة. غضبت لأنى كنت أريد أن أعيش مع الحلم فترة أطول. سمعت بوق السيارة مرة أخرى. استغربت. السيارات فى بلدنا قليلة، زبائنى ليسوا

من أصحاب السيارات. من يركب سيارة يعرف الكبار والحكام ويُمشى أموره بمعارفه وناسه ويعرف مسالك وأبوابا بعدد شعر رأسه. تعودت أن لا يحضر إلىّ سوى الفقراء والمساكين قليلى الجهد والحيلة، الذين نقول عنهم إن كل الطرق مسدودة فى وجوههم دائما. أتى أحد أبنائى، أخبرنى بوجود ضيوف غرباء.

خرجت، وجدت عمدة إحدى قرى المركز فى المندرة. قلت فى نفسى: إن الأيام القادمة سترينا العجب، عمد هذه الأيام رجال من الورق، يغرق الواحد منهم فى شبر من المياه. انتهت أيام العمد الذين كانوا يقدرون على عمل المستحيلات. خرجت بجلباب النوم. كان فمى جافا. بللته بقليل من الماء. شربت، بلعته بصعوبة، وأنا فى طريقى إلى المندرة الجالس فيها العمدة، تبدد فرحى؛ فالعمدة أحد أغنياء الناحية. قد تبدو هذه ميزة، ولكن الأغنياء هم الذين يفاصلون فيما أطلبه من مبالغ. الفقراء يدفعون دون أخذ وعطاء، لا أعرف من أين يحضرون النقود!

لم يكن لدى عمل. كنت أمر بفترة كساد. قلت لنفسى: إن نصف العمى خير من العمى كله. فى المندرة لم يكن العمدة بمفرده، معه رجل غريب، اقتربت منه، عرفت فيه كاتب حجرة التليفون عند العمدة. سلمت. جلست. تبادلنا أحاديث معادة عن الصحة والحال وأخبار الدنيا. قلت بعض المجاملات التى تقال فى مثل هذه المواقف. قلت بصوت حرصت أن يكون ودودا، إن دارنا نورت، وان النبى زارنا اليوم، وانى سعيد بتشريف حضرة العمدة لدارى المتواضعة. اقترب منى الكاتب، طلب منى تهنئة العمدة، صدر الحكم بعودة أرضه إليه أمس، وأقيم احتفال كبير فى البلد، كان من المفروض دعوة كل وجهاء الناحية لحضوره وأنا منهم، ولكن الفرح أتى مفاجئا فلم يتمكن العمدة من دعوة أحد. عموما الاحتفال الكبير سيؤجل لحين تسليم الأرض بالفعل. وأنا مدعو من الآن لحضور الاحتفال الضخم.

كنت متأكدا أن الكاتب يكذب عليّ، وأنهم لم يفكروا فى دعوتى، ولكن الجلسة والمناسبة فرضت الكذب عليه. نفخت عروق رقبتى بهواء كاذب، هنأت العمدة، قلت له: إن أى انتصار له هو انتصار لنا جميعا. لم أكن أعرف ساعتها على من تعود كلمة جميعا هذه. قمت لأقبل العمدة، فى مواجهتى مرآة كبيرة، شاهدت وجهى فيها، الوجه الذى ظهر أمامى كان وجها سعيدا. قلت إنه وجه شخص آخر غيرى لا يمت لى بأية صلة. تصورت أن بشرا آخرين يسكنون داخلى. لم أكن أعرف أبعاد ما حكاه لى الكاتب عن عودة الأرض وخلافه، ولكن الفرح الذى تصنعته أخرجنى من الحالة التى كنت أعيش فيها، حمل لى راحة داخلية جعلتنى أبدو كالسكران أو المسطول. استبشرت خيرا من الكلام. ما أخذ من العمدة أرضه. رجوعها يهم أولاده أكثر منه. أما ما ضاع منى فهو وظيفتى وشرفى ومستقبل أولادى. من يوم حرمانى من قول كلمتى: قيام، جلوس، وأنا مثل النخلة العاقر أو الرجل العاجز. حديث كاتب العمدة انتشر بداخلى حاملا معه طمأنينة جديدة. قلت إنه ما دامت أرض العمدة عادت إليه، لا بد وأن شرفى ووظيفتى واعتبارى فى الطريق إلىّ، الحكاية مسألة وقت فقط.

بعد التهانى لم نجد كلاما نقوله لبعضنا. سكتنا. أتى الشاى. قمت بصبه من البراد فى الأكواب. أخرج العمدة من جيبه علبة سجائر لم أر مثلها من قبل. قمت بسرعة. أحضرت علبة سجائرى من مكان نومى. تعازمنا، وحلفنا بأغلظ الأيمان. تحدثت عن الواجب وأصول الضيافة. العمدة حسم الأمر، قال إننا أهل وإنه فى منزله، لا يوجد بين الأهل فرق. مع الشاى والسجائر شعرت بعودة أيام العمل. كنت أريد الدخول فى الموضوع.

ـ خيرا.

رد الكاتب:

ـ إن شاء اللـه خير.

تنحنح العمدة. بصق فى منديل له رائحة عطرية. نظر حوله. قمت، أغلقت باب المندرة الداخلى الذى يوصلها بالبيت، وأغلقت الباب الخارجى الذى يفتح على الشارع. عدت. جلست هذه المرة فى مواجهة العمدة مباشرة. بدأ الحديث، وأنصت له. صحح الكاتب بعض معلومات العمدة وشرح لى الأمور التى لم أفهمها. كان يذكرنا بوجوده معنا ، كلمة من هنا وكلمة من هناك. فهمت الحكاية. وجدتها صعبة. كل الحيل التى أتقنها قد لا تفلح.

مشكلته تتلخص فى أنه لا يريد أن يذهب ابنه إلى العسكرية. هو حر، الناس أسرار، ليس من السهل معرفة أسرار شخص ما، حتى لو كان أخاك. كل إنسان منا عبارة عن حزمة تعسة من الأسرار. عندى حلول جاهزة ومعروفة: أن يُطلق الرجل امرأته ويصبح الابن هو العائل الوحيد لأمه المطلقة. دهشت عندما وجدت العمدة يرفض هذا الحل بشدة، زوجته الأخيرة لم تنجب له سوى هذا الابن، وهذا يجعلها صالحة لتنفيذ الحل، رفع العمدة يده فى وجهى، قال بشكل لا يقبل المناقشة:

ـ لا يمكن التفكير فى هذا الحل.

حاولت فتح فمى. قاطعنى العمدة. قال إنه من الأحسن التفكير فى حل آخر بدلا من أن نتعب أنفسنا ووقتنا وجهودنا فى حلول لن تنفذ. صرفت نظرى. الجالس أمامى عمدة وهذا معناه أن حلول الزمان القديم مثل قطع الأصبع أو وضع مياه نار فى العين لن تنطلى على أحد. احترت. لم أحب سد الطرق فى وجهه. فضلت ترك الباب مواربا. طلبت منه أن يتركنى فترة من الوقت. كان العمدة متعجلا. بدا لى أنه ينوى أن يجلس

معى ولن يتركنى قبل أن أقدم له الحل. أفهمته أن معى آخرين. سأتشاور معهم. قال لى من ناحية التكاليف لا يهمنى، النقود معه مثل حبات الأرز. كل الأغنياء يتكلمون بهذه اللغة فى البدايات ولكنهم ساعة الحساب يروننى نجوم السماء فى عز الظهر. أفهمته أن الحكاية ليست سهلة، وأن هناك ظروفا صعبة سنمر بها. طمأننى، قال إننى أكبر من مشكلة بسيطة مثل هذه.

على الباب اقترب منى، نظر فى كل الاتجاهات، ذكرنى بضرورة اليقظة، فى مثل هذه الأيام ممكن حدوث أى شىء ولا يقع عادة إلا الشاطر، وأنا ألعب بالبيضة والحجر، وهذا يجعل احتمالات وقوعى أكثر. مشى وتركنى أفكر فى حالتى وما حدث لى. أعتقد أن العمدة قد حكى لكم من قبل حكاية فصلى من التدريس وإحالتى إلى المعاش. سأشكره لأنه أعفانى من هذه المهمة الصعبة، الحكاية تثير الأسى فى النفس، وتبدو مثل جبال الهم فوق القلب. لا أعرف ماذا أقول. كل ما أفعله لا يعجبنى ولا يرضينى.

كنت مدرسا إلزاميا مثل آلاف المدرسين فى بر مصر. اليوم عندما يقابلنى تلاميذى، يديرون وجوههم إلى الناحية الأخرى. صدقونى لا أذكر كيف بدأت المسألة. لى أخت مات زوجها وتركها صبية ومعها ولد منه. أصبحت أرملة أو هجالة فى لغتنا نحن أبناء الريف. لم يكن لها فى الدنيا سواى. ترك لها زوجها خمسة أفدنة لم تكن سبب سعادتها، بقدر ما جعلت زواجها مسألة معقدة، كل من تقدم لها تصورنا أن عينيه على الأرض، ولهذا ظلت بدون زواج. الأيام تكر بسرعة. وصل ابنها إلى سن التجنيد فجأة. كان من المفروض أن يُعفى من التجنيد قانونا، على اعتبار أنه العائل الوحيد لأمه الأرملة. فى المركز قالوا إن منطقة تجنيد الإسكندرية هى الجهة التى تعطى شهادة المعاملة العسكرية.

سأثير ضحكاتكم إن قلت ـ نادما ـ ليتنى ما ذهبت إلى الإسكندرية يومها، لا بد وأن اليوم الذى ذهبت فيه كان يوم نحس بالنسبة لحياتى كلها. أذكر اليوم جيدا: الفصل هو الشتاء، أما الشهر فآخر شهور العام، ديسمبر، البرد يومها كان يجمد الأصابع فى قريتنا، ولكن الدفء فى الإسكندرية كانت له رائحة حلوة. كنت ذاهبا أطالب بحق فى وضوح الشمس، ومع هذا وجدت هناك بئرا اسمه فم الحكومة المفتوح دائما. تعرفت على ضابط من قرية بجوارنا، كان يضع نسرًا على كتفيه، وقال إنه كان جنديا متطوعا ورقى إلى أن وصل لهذه الرتبة. الفلاح يشم رائحة الفلاح مثله، ولو كان فى الصين. سمعنى أتكلم على الباب، اقترب منى. سألنى عن بلدى، قال لى إنَّ لغة الكلام ومخارج الأحرف من فمى ذكرته بالساقية والحقل والنورج والطنبور. تعرفت عليه، ذهبت معه إلى بيته. سهل لى الحكاية وطلب منى خمسة جنيهات، أقسم بالطلاق أن المبلغ لن يخصه منه مليم واحد، سيعطيه لأناس آخرين داخل المعسكر. أعطيته ما طلبه. مكثت فى منزله ليلتين وعدت إلى البلد، ومعى ابن أختى وفى يده شهادة المعاملة. حضرة الضابط بلدياتى قال لى إن منزله ومكتبه مفتوحان لى فى أى وقت، إن كانت هناك أية خدمة لبلدى أو البلدان المجاورة، فهو تحت أمرى كان كبيرا فى السن، شكله ومظهره يقولان لك إن أمامه شهورا قليلة ويحال إلى المعاش. ويبدو أن هذا سر مغامرته ومجازفته.

فى البلد، قال الناس لبعضهم إننى ذهبت مع ابن أختى وعدنا فى نفس القطار الذى ذهبنا فيه ومعنا شهادة الإعفاء. كل بيت له حكايات مع التجنيد وكلها تنتظر الحل. حضر إليّ الكثيرون من أهل البلد. وهكذا وجدت نفسى فى كل يوم بعد الظهر راكبا القطار، متجها إلى الإسكندرية. كثرت المشاوير. أجرت شقة لى هناك وتزوجت. زوجتى الثانية كانت من نساء البنادر البيض، اللاتى ولدن وتربين فى أيام الرخاء. أصبح الحال

جيدا والضابط كان يقدر على عمل المستحيلات فى كل يوم. كنت أدرك أن كثيرا من المشاكل سهلة الحل وأن الضابط يحلها بأصابع قدميه. كثر حديث الضابط عن صعوبة المعيشة وارتفاع الأسعار، وأن الناس تداريها الحيطان. اتسعت دائرة العمل، ودخل فيه آخرون من المركز.

عرف الناس حكايتى وأرسلت الشكاوى إلى الجهات المسئولة. قبض علىّ. هوجمت شقتى فى الإسكندرية، هربت، رجعت إلى بلدنا. وقت الفجر وأنا أرتدى البيجاما، حدثت فضيحة. بدأ التحقيق، سين وجيم، أوراق وتحريات وضباط ومباحث ومخبرون. تم الإفراج عنى بكفالة. أوقفت عن العمل. أصبحت بدون مورد رزق. مددت يدى لمن قدمت لهم خدماتى من قبل. صحيح أننى كسبت الكثير، وأن المكسب كان يكبر كل يوم، ولكنى كنت أقول إن اللـه أعطى واللـه أخذ. وكلت محاميا كبيرا. ولكن زوجتى الإسكندرانية شهدت ضدى، قالت إن ما كنت أقوم به لم يكن يعجبها. فكرت فى طلاقها، قال لى الناس إن الطلاق ليس فى صالحى، قد تجرنى إلى المحاكم، النفقة ومؤخر الصداق، وأتعاب المحاماة. تكفينى مشكلتى الأساسية. تركتها معلقة؛ لا هى زوجة ولا هى مطلقة. تصورت أنها ستطاردنى فى كل مكان. مرت الشهور بدون خبر من ناحيتها. سألت عنها، عرفت أنها تزوجت من رجل آخر وهى فى عصمتى. فرحت، قلت سأدخلها السجن. بدأت البحث عنها، لم أجدها، كأن الأرض انشقت وبلعتها. عرفت بعد بحث مضن أنها تزوجت من رجل يعمل فى ليبيا وسافرت معه.

نسيت أن أخبركم أن الضابط بلدياتى طلع فى التطهير، وأنا أحلت على المعاش. صحيح أنهم لم يضبطوا معى أية أوراق تستخدم كأدلة ضدى. لم أعترف ولم يتقدم أحد كشاهد إثبات، سوى شهادة زوجتى التى لم يعد لها وجود. أكد لى الكل أننى سأخرج من القضية براءة. ولكنهم فى المحكمة

قالوا إن القضية لها بعد سياسى، فهى متصلة بالدفاع عن الوطن. ثم كيف يؤتمن النشء ـ رجال مصر فى السنوات القادمة ـ بين يدى رجل عمله بعد الظهر تهريب الناس من تأدية ضريبة الدم. المحامى الذى وكلته قال لى السبب فى إحالتى إلى المعاش وهو: أن القانون فى إجازة، ولنطلب الرحمة من رب العباد لمصر. لو كانت هناك سيادة للقانون، كنت طلعت براءة. أيامها لم أفهم علاقة ما أقوم به بالسياسة والدفاع عن الوطن ضد أعداء الثورة الذين يتربصون بها. ما كنت أفعله تسهيل بعض المشكلات الصعبة للفقراء والمساكين الذين لا يعرفون الفارق بين حرف الألف وكوز الذرة. كنت أدفع ثمن التخلف، ثلاثة أرباع أهل بلدنا أميون. أقسم لكم أننى أشعر أن ما أقوم به عمل وطنى، مثل مؤسسات العلاقات العامة فى أوروبا وأمريكا، فكيف أعاقب إذن؟!

الناس يسموننى المتعهد. لا أعرف من الذى أطلق علىّ هذا الاسم لأول مرة. الاسم فى حد ذاته دفاع عنى. لا أدرى هل أنا متعهد سعادة أم متعهد متاعب؟ المهم: اسمى الأول تاه، ذاب، ضاع، لم يبقَ منه سوي كلمتى: الأفندى أو الأستاذ. بعض الناس تقول يا أستاذ متعهد، أو يا متعهد أفندى، وهذا يدفعنى إلى قليل من التفلسف وهو حق لى، فمن يكتب لكم هذا الفصل من الرواية مدرس ابتدائى سابق. كلمة المتعهد أتت من العهدة أو التعهد بشىء، وأنا عهدتى مصالح الناس التى يعجزون عن القيام بها أو إنهائها فى مصالح الحكومة الصعبة أو المعقدة. أنا متعهد حل العقد. وأنا عندما أحل المشاكل التى تسبب للناس الارتباك والحزن والخوف، أتصور أنى لا أقل عن الزناتى خليفة أو أدهم الشرقاوى. بالمناسبة أدهم يمت بصلة قرابة لجدى، الفارق بيننا وبينهم أنهم كانوا فرسان السيف والبندقية، وأنا فارس الذهن اليقظ والتفكير الحاد والقدرة على حل أعقد المشاكل.

حكايتى تحتاج المجلدات، ومغنواتى معه الربابة، وليالى مقمرة من ليالى الزمان الجميل الذى مضى ولن يعود إلى بر مصر مرة أخرى أبدا. فعلت الكثير وسعادتى الوحيدة تتركز فى نجاح ما أقوم به من خدمات. فى الفترة الأخيرة أيقنت أننى لو عشت بدون تأدية هذه الخدمات للناس لفقدت مبرر وجودى فى الحياة. أنا لا أخفى ما قمت به، وهأنذا أقوله بوضوح: أنا أقدر على استخراج بطاقات شخصية لأناس لم يولدوا ولم يروا الدنيا، وأوفق فى الحلال بين رءوس لم تسمع عن بعضها. وأبيع أراضى لا وجود لها إلا فى الآخرة، وأنقل حدود الحقول، وأحصل على توقيعات الناس على إقرارات لا يعرفون ما بها، أعمال كثيرة، أقربها إلى القلب المتصلة بالتجنيد وحكاياته من قريب أو بعيد.

فى كل مرة كنت أتمنى أن تكون هى العملية الأخيرة، ولكن بمجرد نجاح العملية، أدخل دون أن أدرى فى عملية جديدة. لا أعرف كيف كانت تتم عملية الدخول فى عمليات جديدة وخطرة. ياه! لماذا أحكى؟ يبدو أن الرغبة فى البكاء هى السبب، أريد البكاء على نفسى، وأريد إشراككم معى. عموما زالت الغمة.

من شهور مضت زارنى حضرة الضابط، بلدياتى القديم، الذى حضر ليعيش وسط أهله بعد خروجه فى حركة التطهير. قال لى إنه حضر للتهنئة، صدر قانون ينص على أن من فصل من عمله بغير الطريق التأديبى لا بد من عودته إلى العمل. عرض علىّ رفع قضية معا، ألسنا مظاليم العهد الماضى؟ طلبت منه الصبر، أجدادنا أوصونا: فى التأنى السلامة، وفى العجلة الندامة. ما المانع من الانتظار لحين صدور أى حكم، لكى نضمن القضية قبل رفعها، هدأت حالتى، عاد العمل أكثر من الأول. البلد سايبة، والكل يعمل ما يريده دون خوف. صديق متعاون من الإسكندرية طلب منى توسيع دائرة العمل، فنحن نمر بفرصة لن تتكرر، المصريون الآن أحرار

فعلا. لأول مرة فى تاريخ وادى النيل، كل مصرى حر فى عمل ما يريده. من يرغب فى السفر يسافر، من يبغى الهرب حر فى الهروب، طريق أبو زيد كله مسالك، وكل الطرق تؤدى إلى ما يريد القادر على الدفع. وما دام معك قرش، فأنت قادر على فعل ما يساوى هذا القرش.

أعرف أن رغبتكم الأولى هى معرفة ما تم فى أمر ابن العمدة. أعتذر لكم فقد أدخلتكم فى أمور ربما لا تهمكم. عذرى هو رغبتى فى الفضفضة. الهموم فوق القلب ليل نهار، تعجز الجبال عن حملها. أعود لحكاية ابن العمدة: بعد أن مشى العمدة، جلست أتذكر. لفت نظرى فى كلامه خبر رجوع أرضه له. انبثق بداخلى اطمئنان مريح. قلت إن وظيفتى ستعود لى. قررت ترك كل هذه العمليات بمجرد عودة الوظيفة. أقسمت أن تكون عملية ابن العمدة هى مسك الختام.

أكمل الحكاية خوفا من تسرب الملل إلى نفوسكم فتنصرفوا عن القراءة وبذلك تصبح الرواية مهددة بالموت. ذهبت إلى المركز. من كثرة تعاملى مع المشاكل أصبحت أعرف المشكلة من الكلمة الأولى، بعض المشاكل تقول لك من اللحظة الأولى هذا هو حلى، والبعض الآخر مثل عقدة الحرير. فى الطريق إلى المركز قابلت الكثيرين، عواطف الناس ناحيتى فى هذه الأيام غير واضحة. شماتة أيام الرَّفد ضاعت ولكن حب أيام حل المشاكل لم يصل إلىّ بعد. يقول بعض الناس إننى قد أعمل ناظرا للمدرسة.

فى المركز دخلت مكتب التجنيد، وقفت أمام مندوب التجنيد، غمزت له بعينى، خرجت. انتظرته فى الخارج، ولكنه لم يحضر، يبدو أنه لم يرنى جيدا، عدت له، هذه المرة رآنى وحضر بعدى. خلف المركز جلسنا على شاطئ قناة صغيرة، تروى مزرعة المركز. جاءت الجلسة تحت شجرة كافور عمرها أكبر من عمر المركز نفسه.

أبدى المندوب سعادته بحضورى:

ـ أهلا يا حضرة الأستاذ.

أسعدتنى كلمة حضرة الأستاذ، بدت كبشائر الخير. جلسنا متواجهين. لم تكن حالتى حسنة. نظر حوله فى كل الاتجاهات. طلب منى الدخول فى الموضوع مباشرة. حكيت له عملية ابن العمدة. صمت. سرحت عيناه ناحية السماء البعيدة. قام، وقف. رمى عود الكبريت الذى كان يلعب به فى أسنانه على الأرض. ابتسم والابتسامة تحولت إلى ضحكة. تكلم، نفس خطبة كل مرة: مخاطر العمل، احتمالات انكشاف أمرنا. استمعت لما قاله فى هدوء. قلت له ما يريد سماعه. أكدت أن مخه يساوى العالم بكل ما فيه. أعرف أنها مباراة بيننا، ما يقوله مقدمات للحصول على أكبر مبلغ ممكن. قررت استغلال الموقف. وضعت له الطعم فى الصنارة، قلت:

ـ إنها صفقة العمر.

أصبح كل منا يقف على مساحة أرض مناسبة. استراحت ملامح وجهه. تردد قليلا، ثم جلس على الأرض. بدأت لعبة اللف والدوران. كلماته كلها تدور حول الموضوع. تجنب ذكر أهم ما يشغله، وهو موضوع الأتعاب. قلت له:

ـ ندخل فى المفيد.

رد علىّ:

ـ لا يوجد فرق بيننا.

أكمل: إن ما يشغل تفكيره أن العملية قد تتسع، ربما دخلت معنا عناصر جديدة. العملية ستتم فى المركز. لن نحتاج أية مساعدة من الإسكندرية أو القاهرة. نصف العملية فى المركز والنصف الثانى فى البلد، وسيقوم به

العمدة نفسه. فتحت فمى من الدهشة لأتكلم، قبل النطق بالحرف الأول، قال لى:

ـ أنا الوحيد فيكم الموظف الرسمى.

قال إنه بحكم عمله مندوبا للتجنيد يصبح فى وجه المدفع. الشبهات تحوم حوله لحساسية عمله. المركب إن غرقت سنهرب منها جميعا إلى شاطئ الأمان عداه، فهو يعد المركب نفسها. أكد أنى أعمل من خلاله، ألعب خارج الحلبة ولكن هذا ليس معناه تسليمه رقبتى ووضع الموضوع كله بين يديه. قلت:

ـ الكلام عن الأتعاب سابق لأوانه.

كنت أريد الاطمئنان إلى تنفيذ العملية أولا، ثم نتكلم فى الأمور الأخرى. اقترب منى، شعرت بأنفاسه واضحة على وجهى:

ـ كل أمر أوله شرط آخره نور. نتفق أولا.

حكى قصة من نجحوا فى السرقة، ولم يرهم أحد إلا وهم يتعاركون على تقسيم ما سرقوه. لم أعرف بماذا أرد عليه. بدت الحكاية معقدة. منذ اللحظة الأولى فكرت فى ترك الأمر من الآن. أتانى صوته:

ـ بعد ثمان وأربعين ساعة تعرف كل شىء.

فرحت، قلت له إذن فلنؤجل الأمر كله إلى ما بعد الغد، تركته وسرت. فى الطريق حلمت باليوم الذى سيتوب علىّ اللـه فيه من هذا العمل الذى لا أحبه، بسببه حياتى كلها جرى، يطاردنى فيه الخوف والملاحقة طوال إجراءات أى عملية، إلى أن يتم الأمر بنجاح، وفى هذه اللحظة يخرج لك من تحت الأرض ألف شخص، يقول لك كل منهم: لقد اشتركت معك وأريد نصيبى. والبعض الآخر عرف بالأمر، وهو لا يطيق السكوت،

ومصلحة البلاد فى خطر والواجب الوطنى يفرض عليهم إبلاغ الجهات المسئولة. أكمل أنا: سنعطيك ثمن السكوت. وهكذا لا يتبقى لى فى النهاية سوى الملاليم القليلة. ولأنه يفصل بين المبلغ والآخر فترات بعيدة، يأتى المبلغ ليجد الديون فى انتظاره، التى تكون أحيانا أكبر من الذى حصلت عليه. لو أضفت إلى كل هذا: التهديد اليومى، محاولات التخفى، الخوف من شبح السجن، التفكير فى الفضائح. إنى أتحمل كل هذا ولكن ما ذنب أولادى.

إن قلت إنّ ضميرى يعذبنى ستضحكون، لن يصدقنى أحد، ستقولون إنى أتلاعب بعواطفكم. أقسم لكم لولا احتياجى فى أيامى هذه ما فعلت هذا. ثم إن نصف أعمالى وقوف بجوار المظلومين. صحيح أن حكاية ابن العمدة ليست من أجل إنسان مظلوم، وأنا غير مقتنع بها، والاحتياج فقط هو الذى دفعنى للتوسط فيها. ابن العمدة لا بد من ذهابه إلى الجيش فهى ضريبة دم. صدقونى لو كان ابنى هو المطلوب لأخذته من يده حتى باب منطقة التجنيد ولعدت سعيدا فخورا بوجوده فى خدمة الوطن.

العمدة حضر إلىّ فى ظرف صعب، الأيام جافة، لا بد من إسكات أصوات الجوع. لا أحد منكم يعرف معنى هاتين الكلمتين: الجوع كافر. خصوصا عندما تقرأهما وأنت جالس على مقعد مريح فى شقة عصرية مليئة بكل وسائل الراحة وبطنك متخمة بأنواع الطعام، بل قد تبدو سكرانا من كثرة الأكل. إن الطعام الجيد الدسم يسكر مثل الخمر، لهذا لن تصدقونى عندما أردد هاتين الكلمتين: الجوع كافر. عموما سأرددهما لنفسى بعيدا عنكم. وأريد أن تعرفوا أنه لم يصرف لى معاش منذ تركى الخدمة لأننى فصلت فى قضية تمس الشرف.

الآن نستمر فى الرواية: فى الموعد وجدت مندوب التجنيد خلف

المركز، حالته أحسن من المرة الأولى، قدم لى سيجارة. ضحك أكثر من مرة. قال إنه فكر فى حكاية ابن العمدة اليومين الماضيين، الموضوع ليس سهلا بالمرة، ولكنه من أجل خاطرى وخدمة للمساكين الذين يقصدوننا فى أزماتهم، سيقوم بعمل اللازم. لن يذهب ابن العمدة إلى الجهادية، ولكننا سنحتاج جهود موظف السجل المدنى وموظف من مكتب الصحة واثنين من الموظفين فى أية مصلحة حكومية ورئيسهم المباشر، على أن يكون فى هذه المصلحة خاتم شعار الدولة. خفت منه. إدخال كل هذه العناصر لن يجعلنى أحصل إلا على الفضلات.

قلت له:

ـ لنتحدث فى صلب الموضوع.

دارت عيناه فى أركان الكون الأربعة. طلب منى الابتعاد عن المركز:

ـ الحيطان لها آذان.

قالها وهو يأخذنى من يدى مبتعدا عن السور، ودخلنا حوض جرجير جلسنا فى وسطه، وكانت رائحة أوراق الجرجير الخضراء تصل إلى أنفى واضحة. ابتدأ مندوب التجنيد يتكلم. قال إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، وأنه لكى تتم حكاية ابن العمدة بدون متاعب، هناك حل صريح وواضح. إنه عمدة ولن يغلب فى حكاية بسيطة. صحت فيه:

ـ كيف هذا؟

قال بهدوء:

ـ السرعة من الشيطان.

المسألة بسيطة. أخذ حضرة الصول مندوب التجنيد يشرح فكرته لى،

وأهم ما فى الأمر أنها مضمونة مائة فى المائة. اتجهنا إلى منزلى. طلب مندوب التجنيد ورقا وقلما. رسم الخطة من الألف إلى الياء. كتب عنوانا ضخما: مراحل التنفيذ. العنوان الثانى: المشتركون فى العملية. والثالث: تكاليف العملية.

كان ما كتبه المندوب عبارة عن الكروكى العام والخطوط العريضة للعملية. تركنى مندوب التجنيد. وجدت أمامى الأوراق التى كان يخطط فيها بقلم رصاص، ودون أن أدرى ـ والفراغ يفعل بالناس الأعاجيب ـ أمسكت بالقلم الرصاص. استهوتنى الحكاية، ووجدتنى أستخدم ذهنى العاطل ربما للمرة الأولى منذ سنوات. غرقت فى العمل. بعد ساعات وجدت بين يدى كومة من الأوراق مكتوبة بخط منسق الأحرف، فيها الخطة كلها. أستأذنكم فى ضم الأوراق التى كتبتها إلى الفصل الخاص بى، لكى تدركوا معى، كيف أهدرت مصر واحدة من مواهب أبنائها العظام دون ذنب جناه.

أولا: مراحل التنفيذ

المقصود بمرحلة التنفيذ: الوحدة الكاملة من الإجراءات المرتبطة ببعضها البعض، والتى يؤدى نجاح أى منها إلى نجاح الأخرى. كما أن انكشاف أى واحدة لا بد وأن يؤدى إلى انكشاف الأخرى. العلاقة بين مرحلة وأخرى علاقة عضوية تبادلية، كما أن المرحلة الواحدة تحتوى بداخلها على أكثر من خطوة واحدة، وسلامة التنفيذ كل لا يمكن فصل أجزائه.

المرحلة الأولى وعنوانها: البديل

ومن عنوانها نعرف أنها تعنى بالإجراءات الخاصة بالشخص الذى

سيذهب إلى التجنيد بدلا من ابن العمدة. وهى تقدم كل المطلوب، منه وتنتهى عندما يكون البديل جاهزا للعمل والدخول فى اللعبة. ولا بد وأن تتوفر فى البديل الشروط الآتية:

١ ـ أن يقبل الذهاب إلى التجنيد على أنه ابن العمدة، وليس بدلا منه فقط.

٢ ـ أن يكون من مواليد قريته، ومن مواليد نفس اليوم الذى ولد فيه ابن العمدة.

٣ ـ أن يكون معفى من التجنيد حتى لا يؤدى الخدمة مرتين ـ مرة لنفسه ومرة لابن العمدة ـ فينكشف الأمر.

٤ ـ أن يقبل تسليمنا الأوراق الدالة على وجوده فى العالم مثل: البطاقة الشخصية، بطاقة التجنيد، تذكرته الانتخابية، أية كرنيهات أو اشتراكات مواصلات خاصة به. وحفظ هذه الأوراق لدينا أو عند العمدة فى مكان أمين لا تصل إليه يد أى إنسان.

٥ ـ يستحسن أن لا يكون من عائلة كبيرة أو من عائلة صغيرة تربطها صلات القربى والمصاهرة مع عائلة كبيرة. كما لا يجب أن تكون له أية مصالح مع إحدى هذه العائلات. وإن كانت له مصالح، فمن المرغوب فيه أن تكون مع العمدة مباشرة أو مع أحد حلفاء العمدة. مع التأكد من عدم وجود علاقة من أى نوع كانت بينه وبين أعداء العمدة فى الناحية كلها.

٦ ـ استخراج شهادة وفاة طبيعية للبديل. ويستحسن أن تكون الوفاة بسبب مرض كان مصابا به البديل ويعلمه الجميع فى البلد. وما دام أنه

من الثابت وجود من سيتعاون معنا من مكتب صحة المركز نظير أتعابه التى ستكون صغيرة، لهذا لن نكتفى بشهادة الوفاة الرسمية الصماء، سنطلب منه إقرارا شخصيا بصفته يعمل فى مكتب الصحة عن ظروف الوفاة، يقول فيه إن البديل مرض فجأة، ولعدم وجود أطباء فى قريته أتوا به إلى مستشفى المركز، ثم توفى. هناك اشتباه أنه كان مصابا بمرض وبائى، لهذا عملت على جثته الدراسات والأبحاث اللازمة. ولكى يتم الرجوع للجثة مستقبلا ومنعا لإثارة حساسيات الفلاحين البسطاء دفن بالقرب من المستشفى. ومنعا للقيل والقال، لم يبلغ أهله بالوفاة لأن مصر العزيزة والغالية تمر بظروف دقيقة، وأن أعداء مصر يحيطون بها من كل جانب.

٧ ـ استدعاء والد البديل، وأخذ إيصالات أمانة وكمبيالات عليه، وتحرير شيكات بدون رصيد باسمه بمبالغ ضخمة لاستخدامها مستقبلا كضمان أكيد فى إسكاته حتى خروج ابنه من الجيش. وهذا يضمن وقوف والد البديل معنا بشهادته إن انكشف الأمر.

٨ ـ تفهيم البديل أنه أصبح ابن العمدة. وأن يتصرف على هذا الأساس، مع تعريفه بتاريخ عائلة العمدة وممتلكاته وعلاقاته وأسرار العائلة الدقيقة والتى لا يعرفها أحد غير العمدة حتى لا يشك أحد فيه.

المرحلة الثانية وعنوانها: الأصلى

وهى جملة الإجراءات والعمليات الخاصة بابن العمدة. المفروض أن يبعد عن البلد ويترك المدرسة ويشطب من كل مراحل التعليم. إن ظهوره فى أى مكان فى دائرة المركز أو المحافظة يهدم اللعبة، سيكون فى الجيش أمام الناس وعلى الورق ابتداء من تجنيد البديل. وحبذا لو أجريت له عملية تجميل فى وجهه حتى لا يتعرف عليه من يشاهده. إن سفر ابن العمدة

خارج البلاد باسم آخر هو الضمان الأكيد، إن رفض العمدة ذلك فيجب إخفاؤه جيدا داخل مصر.

المرحلة الثالثة

وهى بدون عنوان لأنها تقوم على التبادل والتركيب بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية. إن المرحلة الثالثة هى الجزء التنفيذى فى العملية كلها. والوصول إلى هذه المرحلة يعنى أنّ كل طرف عرف دوره وفهم المحاذير، وبقى دور التنفيذ الدقيق لكل المراحل المختلفة. ومن هذه المرحلة: تستخرج بطاقة شخصية باسم ابن العمدة الثلاثى وبصورة البديل، وبهذه البطاقة يذهب البديل إلى المركز للحصول على بطاقة التجنيد واستمارة السفر، ويقدم نفسه لمنطقة تجنيد إسكندرية على أنه ابن العمدة.

والبطاقة الشخصية. التى ستجمع بين الاثنين ـ أحدهما يمنحها اسمه والآخر يعطيها صورته وبصمته ـ يستخرجها لنا رئيس مكتب السجل المدنى بالمركز، واستخراجها أساسى ويترتب عليه الكثير من نجاح العملية. يبقى الإشراف على سفرهما معا، البديل إلى منطقة الإسكندرية ومراقبته عن قرب فى الأيام الأولى، حتى لا يخطئ فى التصرف، أى خطأ سيكشف المسألة كلها. وفى الوقت نفسه متابعة سفر ابن العمدة إلى أبعد مكان ممكن، والتأكد أنه لم يلتحق بأى مكان ولم ينتظم فى الدراسة بأى معهد أو مدرسة ولم يدخل طرفا فى أى مشروع تجارى. على أن يستمر الحال هكذا إلى أن تنتهى مدة التجنيد كلها بالسلامة.

المرحلة الرابعة

ستظل احتمالا معلقا فى سماء الأمنيات المؤجلة أو فى رحم الغيب، حتى تفرض نفسها بعد وصول اللعبة إلى الذروة، فى اللحظة التى يخبط فيها

الحكم يديه، وينفخ فى الصفارة نفخته الأخيرة التى تعلن انتهاء اللعبة. فى هذه اللحظة الحاسمة والخطيرة، نصل إلى رحلة جديدة يسمونها فى قواعد اللعب: مرحلة إعادة ترتيب المتناقضات. ابن العمدة لا بد وأن يعود إلى البلد كمواطن شريف، أى بعد تأدية خدمته العسكرية، فى يده شهادة تقول إنه مواطن صالح، دفع ضريبة الدم للوطن الغالى، وعلى كتفيه جبال الأوسمة والنياشين التى حصل عليها خلال الخدمة العسكرية. أما البديل فبعد أن يسترد كل الأوراق التى تثبت وجوده على قيد الحياة فى عالمنا، وهى الأوراق التى ستظل محفوظة لدينا إلى أن تنتهى مدة التجنيد، أمامه ثلاثة طرق:

إما أن يعود إلى البلد على أساس أنه كان متطوعا فى الخدمة العسكرية طول فترة تجنيده الأصلى، ثم اكتشف صعوبة الحياة فى الجيش واستحالة استمراره كل سنوات العمر فى ظل الميرى. بعد انتهاء مدة التطوع الأولى، رفض التجديد، فضل حريته الشخصية على احتمالات الترقى لرتب الضباط، واستجاب لنداء ريف مصر حيث الحب والهدوء والسلام.

الطريق الثانى: سفره إلى خارج البلاد، ونحن ملتزمون بتقديم كافة التسهيلات المطلوبة له.

الطريق الثالث: هو حصول البديل على وظيفة مثل كل الذين يسرحون من الخدمة العسكرية، عليه فقط أن يقدم لوحدته بيانات غير صحيحة بالنسبة لمكان إقامته، ليتم التعيين فى بلدة أخرى. هنا تثور مشكلة أخرى صغيرة: إن التعيين سيكون باسم ابن العمدة، كيف يحصل عليه البديل الذى سيعود فى هذا الوقت بالذات إلى اسمه الأصلى؟ وهى مشكلة شديدة البساطة وحلها سهل: إما أن يتنازل ابن العمدة عن الوظيفة لإنسان آخر

محتاج إليها ويعانى فى سبيل الحصول عليها، وبهذا يترك الوظيفة رسميا للبديل. أو نقوم نحن بعمل اللازم ليصبح التعيين باسم البديل. وبهذا يعود كل طرف إلى قواعده سالما، ونكون نحن قد وصلنا إلى النهاية التى يقولون عندنا فى مصر «مسك الختام».

ثانيا: المشتركون فى العملية

١ ـ المتعهد.

٢ ـ مندوب التجنيد.

٣ ـ مساعد مندوب التجنيد.

٤ ـ رئيس مكتب السجل المدنى بالمركز.

٥ ـ مسئول استخراج البطاقات الشخصية فى السجل المدنى.

٦ ـ العسكرى المكلف بأخذ البصمات للأشخاص الذين يتقدمون بطلبات الحصول على بطاقات.

٧ ـ التومرجى الذى يحدد فصائل الدم فى مكتب الصحة.

٨ ـ الموظف المسئول عن استخراج شهادات الوفاة وتصاريح الدفن فى مكتب صحة المركز.

٩ ـ عسكرى المراسلة بين مندوب التجنيد فى المركز ومنطقة تجنيد الإسكندرية والذى يذهب بالمجندين لتسليمهم.

١٠ ـ ضابط اتصال لملاحظة البديل فى أيامه الأولى فى التجنيد، ويتصل بالبديل يوميا لمعرفة التفاصيل منه، وإعطائه التعليمات التى تضمن

سيره فى الطريق السليم. وأقترح أن يقوم مندوب التجنيد بتلك المهمة لسهولة دخوله منطقة التجنيد إن اقتضى الأمر ذلك.

١١ ـ مشرف تكون مهمته متابعة ابن العمدة بعد ذهاب بديله إلى التجنيد؛ لكى يتأكد بنفسه من تنفيذ الشروط الخاصة بابن العمدة الأصلى.

ثالثا: تكاليف العملية

١ ـ مئة جنيه، أتعاب استخراج بطاقة شخصية تحمل صورة البديل واسم ابن العمدة.

٢ ـ مئة وخمسون جنيها، تكاليف استخراج شهادة وفاة للبديل بتاريخ سابق على يوم تسليمه نفسه للعسكرية مع التقرير الخاص بظروف الوفاة.

٣ ـ عشرون جنيها، مكافأة للمسئول عن أخذ البصمات فى المركز؛ والذى سيقوم بأخذ البصمة للبديل الخاصة بالبطاقة الشخصية وبطاقة التجنيد.

٤ ـ خمسة وأربعون جنيها، لعسكرى المراسلة المسئول عن أخذ المجندين والسفر بهم إلى الإسكندرية؛ خاصة أنه أول مسئول سيتعامل مع البديل على أنه ابن العمدة.

٥ ـ ستون جنيها، لصديق يعمل فى منطقة تجنيد الإسكندرية؛ لكى يسهل مراقبة البديل فى أيامه الأولى، ويطمئنه ويدله على الطرق السليمة فى التصرف، وينذرنا إذا ما حدث ما يؤدى إلى انكشاف الأمر، ويكون وسيلة اتصال بيننا وبينه.

٦ ـ ثلاثمائة جنيه، لمندوب التجنيد؛ لكونه فى وجه الخطر مباشرة.

٧ ـ ثلاثمائة جنيه، للمتعهد؛ لقيامه بالعملية كلها، وكونه أداة الاتصال بالعمدة.

هوامش

١ ـ لم يدخل فى قائمة الحساب ما سيدفع للبديل وأهله، حيث إن ذلك خارج الاتفاق. وقد أفهمنا العمدة أن إحضار الشاب البديل مسئوليته وحده.

٢ ـ تكاليف إقامة ابن العمدة بعيدا عن البلد مدة سنوات التجنيد يتحملها والده، حيث إنها عملية أمنية. وقد تطول، ولا أحد يعلم كم يصل عدد سنواتها.

٣ ـ نفقات الانتقال والإقامة، ونفقات الإعاشة خلال مراحل تنفيذ العملية لم تدخل فى كشف الحساب السابق.

انتهت المذكرة عند هذا الحد

قال لى مندوب التجنيد فى البداية إن الحكاية ستتسع. ظلمته لأننى ظننت أنها مناورة منه. الآن أقولها، لقد فهمت معنى اتساع الموضوع. انتهت المشاكل المتعلقة بمندوب التجنيد. الطبخة معدة للعمل، والباقى علىّ أنا والعمدة. فى اليوم التالى ذهبت إلى العمدة بمفردى، ركبت السيارة، نزلت على الجسر، اتجهت إلى الدوار. لم أسأل أحدا لأننى أعرف منزله. فى الطريق قابلت الكثيرين من شباب البلد. حيانى بعض من يعرفنى من الناس. تفرست فى وجوه الشباب بالذات. سألت نفسى: من سيكون البديل؟ أيهم سيحضر إلى المركز لكى أرسله على أنه ابن العمدة إلى التجنيد؟

استقبلنى العمدة. كان يجلس فى الدوار يفصل فى قضايا ومشاكل الناس. صافحنى بشكل عادى. دهشت من فتور المقابلة. بعد قليل أشار

إلى أحد الخفراء ليأخذنى لداخل منزله، صحبنى الخفير فى احترام زائد، يبدو أن دخول منزل العمدة تمييز لا يحصل عليه الكثيرون.

حضر العمدة بعدى. كان شخصا آخر، أخذنى بالأحضان وقبلنى، اعتذر لى عن المقابلة الجافة فى الدوار، بسبب وجود الناس. قال لى إنه فعل هذا لكى لا يلفت نظر أحد إليه. تحدثنا. قدمت له الخطة، زعمت أنها من وضعى. صمت العمدة إلى أن انتهيت من كلامى. دهش الرجل. فكر طويلا. نظر إلى ضوء صغير يبدو من السماء من خلال نافذة فى أعلى الجدار. لعن الزمن الوغد الذى رمانى بدون عمل. قال إذن مصر ستظل متخلفة، وهنا ـ وأشار إلىّ بأصبعه المفرطحة ـ يكمن السبب، فهى تحول دون مساهمة أكثر أبنائها ذكاء فى بنائها. السر هو أن أى مسئول يخشى الأذكياء وأولاد الناس. إن بقائى بدون عمل مؤامرة ليست فى صالح مصر أبدا. قال لى إنه موافق على التخطيط العام، وإن كانت له بعض الاعتراضات.

أولا: لا داعى لأخذ الشيكات على والد البديل، فهو مضمون من كل النواحى ولن يقدم ابنه للقيام بهذه المهمة بالمجان، ثم إن بينهما قدرا كبيرا من المصالح الهامة والمستمرة.

ثانيا: حكاية سفر ابنه إلى بلد بعيد، لم يكن راغبا فى هذا. وهنا ناقشنى طويلا، قال إنه سيصارحنى بالأمر؛ فالشاب لا يمكن تركه فى مكان بعيد بمفرده لأن أمه لا تستطيع تركه دقيقة واحدة، إنه وحيدها، وسيظل وحيدها أبد الدهر، لظروف لا يمكنه شرحها لى، لأنها من أسرار بيته وحياته العائلية. إن سافر ابنه وعاش فى مكان ما بعيدا عنه، لا بد وأن تسافر أمه معه، وهذا معناه فتح بيت فى الغربة، وتلك مسألة صعبة نفسيا وماديا وضميريا.

طالت المناقشة، وأصر كل منا على رأيه. كان إصرارى سببه ضمان

نجاح العملية. وكان إصراره هو لأسباب عاطفية. أقنعته برأيي. وافق فى النهاية على إبعاد ابنه ولم نتفق على المكان الذى سيذهب إليه الشاب مع أمه. قال لى إنه سيرسل لى البديل ووالده غدا أو بعد غد على الأكثر لكى نبدأ العمل.

وصلنا أخيرا إلى النقطة الهامة، وهى النقود. قال العمدة إنه يستحسن أن أكلف أنا العملية كلها، وأن آخذ منه المبلغ فى الآخر مرة واحدة. فهمت أنه يلمح للضمان، وتلك مسألة يثيرها الكل، يقولون عادة من يضمن لى تمام العملية؟ وكيف أدفع النقود كلها من الآن، كلف وسأعطيك ما تطلبه وزيادة فى النهاية. فى الحالات الأخرى كان هذا المنطق يبدو مقبولا خاصة عندما تكون التكلفة صغيرة. هذه المرة المبلغ ضخم والأطراف متعددة، والكل يمد يده قبل القيام بأى خطوة.

شرحت له الموقف، شعرت أنه متردد. قلت له بوضوح: إننا لن نبدأ العمل، إلا بعد أن نأخذ مبلغا تحت الحساب يغطى الخطوات التمهيدية. اشتكى من ارتفاع التكاليف خاصة وأن هناك بعض المهام سيقوم بها، مثل إحضار البديل، ولا يعرف أحد كم سيكلفه، وإقامة ابنه فى مكان آخر، وتلك مشكلة أخرى.

انتهت المناقشات بموقف مائع، طلب منى إمهاله يومين حتى يعطينى إشارة البدء. كان ردى عليه حاسما، قلت له:

ـ ومن المستحسن فى هذه الحالة تأجيل زيارة البديل لى، لأنها لن تقدم أو تؤخر شيئا بدون النقود.

شعرت بالغضب والضيق وهاجت فى صدرى عواطف ساخنة لدرجة الغليان ضد هذا الكيان غير المفهوم الجالس أمامى، ولكن بعد أن أحضرت لنا الخادمة صينية الغداء تحول الرجل بقدرة قادر إلى بحر من الكرم

واللطف والمؤانسة. تعجبت من أمر الناس، خاصة أهل الريف فى مصر، ونحن نتناول طعام الغداء قال لى إنه يشعر أننا أهل، وأننا تربطنا قرابة ما منذ زمن بعيد. طلب منى أن أكون فى صفه، وأن لا أقف فى معسكر منفذى العملية، وأن أحاول اختصار المبلغ ولى عمولة على كل جنيه أختصره من المشتركين معى. وافقته وسعدت، فمعنى كلامه أن المسألة ستتم.

وتركته على أن نلتقى بعد يومين.

الخفير

فى بلدنا مثل يقول: ضربتان فى الرأس تسببان ألما ووجعا للإنسان، يجعله لا يعرف يمينه من يساره. يبدو أن هذا المثل قيل فى أيام الراحة والعز، اليوم تكفى نصف ضربة، أو حتى مجرد لمسة صغيرة، لكى تجعل الإنسان عاجزا عن القيام من مكانه. ما حدث لى اليوم يؤكد كلامى.

أنا أحتاج لتقديم نفسى لكم. أعتقد أن دورى فى الرواية قد حان. أبدأ فصلى من هذه اللحظة التى ستظل حية بداخلى إلى أن تذهب معى إلى القبر، وتدفن فى حضنى بداخله رغم معرفتى بضيق قبور الفقراء أمثالنا.

اللحظة تبدأ فى ذهنى بطرقة على الباب، مجرد طرقة صغيرة عادية، تحدث فى الليلة الواحدة آلاف المرات. بيوت المساكين تغلق أبوابها من ساعة المغربية طلبا للستر من ناحية، ولأنه لا يتردد عليها أحد من طالبى الخدمات أو أصحاب المصالح من ناحية أخرى.

خبط الباب وكانت الدنيا قد ليلت، وكنت قد تركت الدوار والمخازن التى أحرسها للعمدة وخطفت قدمى لأتعشى. هذه اللحظة تكون الناس يقظة وأصوات الحركة تملأ الدنيا، والأنوار التى تخرج من الدكاكين والبيوت تعطى الإنسان بعض الونس، وتوقف أولاد الليل عند حدهم. وضعت أول لقمة فى فمى، أحسست أنها جرحت زورى من جفافها. لم أضع فى فمى سواها. أشرت لهم بيدى ليرفعوا الطبلية، وأن يعملوا لى

كوب شاى كبير. نظرت زوجتى إلى نظرة طويلة وهادئة مثل مياه المصرف الراكد، والذى لم تتحرك فيه نقطة ماء منذ سنوات. فهمت من نظراتها أنه لا يوجد سكر فى البيت.

قامت ، ذهبت تستدين قليلا من السكر من إحدى الجارات، إلى أن نصرف تموين الشهر. حصل عندى غيظ. الطرقة على الباب ذكرتنى بالضربات التى أصابتنى فى الفترة الأخيرة. أبدأ بالضربة الأولى، ورغم أنها كانت متوقعة ومنتظرة، إلا أننى اعتبرتها ضربة موجهة لى. إنها الإحالة على المعاش. كنت خفيرا نظاميا عندما بلغت السن القانونى. أرسل المركز خطابا صغيرا بحجم كف اليد من ورقتين. أخذ منى كاتب حجرة التليفون الختم وغمسه فى الختامة، ووضعه على الورقة. أخذها معه وأعطانى الورقة الأخرى. قال لى إننى من أول الشهر القادم أصبحت فى المعاش. فهمت الأمر وأنا واقف أمامه. حدث هذا لزملائى فى السنوات ا لماضية أكثر من مرة. لن أخرج بالليل لأقف فى الدرك، ولن أتسلم البندقية القديمة التى أحبها ومعها الطلقات العشر، وأدور فى حوارى البلد والبندقية معلقة فى كتفى، قاضيا الليالى الباردة مثل قطعة الثلج والحارة مثل بطن الفرن، نائما على المصاطب أمام البيوت صائحا فى سكون الليل الموحش: من هناك؟ تقدم من أنت؟ ترى هل سينادينى الناس باللقب الجميل:يا شيخ الخفر؟ وحشتنى متاعب العمل، التى كنت أشكو منها لطوب الأرض ليل نهار.

بعد إحالتى على المعاش، نقص مرتبى بشكل مخيف، كنت أتقاضى تسعة جنيهات وربعا، انخفضت إلى أربعة جنيهات إلا ربعا، وهذا انعكس على حياتى ونفقاتى وتعامل الناس معى: البقال من يومها لا يعطينى شككا. آلمتنى الإحالة على المعاش لسبب آخر: كان الدور علىّ فى الترقية إلى شيخ خفر، أنا أقدم خفراء البلد، ولو أحيل شيخ الخفر على المعاش أو فصل أو توفى لكنت رقيت شيخا للخفراء. أحسست بالفراغ والاحتياج، وأصبحت

أقضى وقتى كله فى الحقل، سواء كان لدى عمل أم لا. كنت أفضل المبيت هناك، لولا أن ذلك كان يكلفنا الكثير، العشاء يصبح عشاءين: واحد فى البيت والآخر فى الحقل، وبراد الشاى يصبح برادين، والإفطار إفطارين. ولهذا كنت لا أتناول طعامى إلا فى البيت مهما تأخرت.

ذات يوم. وعند مرورى على دوار العمدة، وكان يوما شتويا والعمدة جالس فى شمس الشتاء التى تبدو كأغلى أنواع الفاكهة فى غير أوانها، نادى العمدة علىّ، ذهبت إليه. سألنى عن حالى وأولادى وبيتى. شكوت له سوء الحال. كلفنى بحراسة دواره وماشيته ومخازنه والحديقة، قلت له إن حراستها من عمل الخفير النوبتجى فى غرفة التليفون، قال لى ذلك صحيح وأنه يحدث منذ حياة جده الأكبر، ولكن الأحوال تغيرت، وتلك كلها ممتلكات خاصة بالعمدة والمفروض أن يعين لها خفيرا من حر ماله. رد أحد الجالسين، الذين لا عمل لهم سوى مسح جوخ العمدة وموافقته فى كل ما يقوله، ومنافقته فى كل أمور البلد، قال إن العمدة يريد مساعدتى، إنه رجل خير وطيب، لهذا فهو لا يريد أن يقدم لى إحسانا فيجرحنى، ممتلكاته جزء من زمام البلد، وهى تدخل رسميا فى درك أحد الخفر، والمفروض أن يعتنى بها ذلك الخفير بشكل خاص. العمدة رمز الحكومة والحفاظ على هيبته حفاظ على الحكومة نفسها، والمفروض ـ أكمل ماسح الجوخ ـ أن أقبل اليد الممدودة لى.

فى اليوم التالى تسلمت عملى. لم أكن غريبًا على بيت العمدة، ولكنى الآن الحارس الخاص لمنزله. لم نتفق على الأجر، ذهبت للعمل حسب كلام العمدة فقط. عوضنى عن الاتفاق على الأجر، المعاملة السخية والطيبة التى لقيتها من زوجة العمدة الأخيرة؛ كانت تقدم لى وجبتى العشاء وإفطار الصباح، وترسل لى الشاى، وأحيانا الدخان، واعتبرت ما تقدمه لى عزاء أيام القحط التى نعيشها.

الليلة، كانت زوجة العمدة الأخيرة مريضة، لم ترسل لى الطعام. سألت عنها، قالوا إنها فى السرير، طلبت لها الشفاء. حضرت إلى منزلى لأتعشى. أدركت أن مسألة زوجة العمدة ليست مرضا، فى حياتها سر ما، فى الفترة الأخيرة، وجهها أصابه اصفرار جعله مثل وجوه الفقراء منا، والعين زائغة والسعال لا يتركها. كانت عليلة بلغتنا، وإن كنت لم أعرف العلة أو سببها. الناس فى بلدنا إما فقراء تداريهم الحيطان، أو أغنياء لهم أسرارهم الخاصة التى ليس من حقنا معرفتها.

الطرقة على الباب ذكرتنى بالضربات، وإن كانت ضربة عن ضربة تفرق. هناك ضربة أتت فى الرأس مباشرة جعلتنى أشعر أن حياتى انتهت، ودفعتنى إلى السؤال: متى يأتى الموت لكى يريحنى من هذه الحياة؟ سمعت طلقات الرصاص تنطلق من دوار العمدة، فرحت. فرح أى إنسان فى البلد يعد فرحا للكل. لم يدر بخاطرى أن بلدى ستعرف أياما عصيبة، سيكون فرح إنسان ما فيها، غما وكربا لإنسان آخر. صوت الرصاص - يأتى إلىّ من بيت غنى - لم يثر دهشة أحد، الأغنياء أفراحهم لا تنتهى، والفرح يسلمهم إلى فرح آخر، ولكن عندما حضر ابنى، قرأت فى وجهه هما أراه لأول مرة.

قبل الحديث عن الهموم. أقدم لك ابنى أولا، اسمه «مصرى»، وهو الابن الوحيد على خمس بنات، تعلم، حصل على الإعدادية من المدرسة الموجودة فى البلد، ولما كان تعليمه سيكلفنى سكنا فى البندر وطعاما ونفقات ملابس وكتب، وأنا محتاج لمن يساعدنى فى الحقل، وبيتنا يحتاج لرجل معى، أيامى ذاهبة ولا بد من وجود رجل بدلا منى، اكتفيت بتعليمه حتى الإعدادية. مصرى كان مصمما على إكمال تعليمه، فهو الأول فى المدرسة دائما، وأبناء الأغنياء كانوا يحضرون إلى بيتنا الصغير لكى يذاكروا معه. اختلفنا، كاد مصرى أن يترك البيت، وصلنا إلى حل وسط:

أن يدخل مصرى المدرسة من المنازل، ويذاكر مع الطلاب الذين يسافرون إلى المدرسة الثانوية فى المركز كل يوم، رغم هذا نجح مصرى، وكان الأول أيضا.

حضر إلىّ مصرى، الهموم والمشاكل تتعارك على وجهه. سألته عن الأفراح والزغاريد وطلقات الرصاص، قال لى هذا أسود يوم فى حياتنا، دهشت.

قال:

ـ صدر حكم قضائى اليوم بعودة الأرض التى أخذها الإصلاح الزراعى من العمدة ووزعها على الفلاحين، وأن البوليس سيأخذ الأرض من المنتفعين ويسلمها للعمدة.

تصورت أن المسألة تعنى تغيير المالك، سيصبح العمدة بدلا من الإصلاح الزراعى. ضحك مصرى فى مرارة، أكد لى أن العمدة قال لكل من ذهب ليهنئه أنه لن يتسلم شبرا واحدا من الأرض وعليه مستأجر، ولابد وأن يأخذ أرضه بدون مستأجرين، وهو حر التصرف فيها بعد هذا: يزرعها، يبنى عليها، يؤجرها، يزرعها مناصفة.

درت بنظرى على حقلى، ثلاثة أفدنة، قطعة مربعة من الأرض، معى منذ سنوات لا أعرف عددها. توقفت بعينى عند دوار المواشى والساقية التى بنيتها مشاركة مع جيرانى، وشجر الكافور والجازورين الذى بحد الأرض. بدونا ـ أنا ومصرى ـ ضعيفين. مصرى أكثر ضعفا منى، طول عمره وهو أقوى منى. الآن يبدو مصرى ضعيفاضائعا، لم أعرف كيف أتصرف. كنت أود أن أبدو أمام مصرى رجلا لا يخاف، قادرا على التصرف. قلت له إن ما يحكيه كلام مصاطب، يقوله الذين بلا عمل، ولن يستطيع أحد أخذ هذه الأرض منا. أكمل مصرى:

ـ ذلك أمر مفروغ منه، ولن تتمكن أى قوة فى مصر كلها من أخذ الأرض منا.

تركنى مصرى، جلس على رأس الحقل، أنزل قدميه فى قناة المياه. أخذ يرمى حبات الطوب فى المياه وينظر لتموجات المياه التى تبدأ دوائر صغيرة تتسع وتصبح دوائر واسعة إلى أن تتكسر على شاطئ القناة. أمامى عمل يتطلب إنجازه.

نحن فى أواخر الربيع، ورائحة الصيف تتسلل إلى الجو، والحقول مليئة بالخيرات. هذه أحلى أيام السنة والعمل فيها كثير، لدرجة أنى أتصور فى بداية اليوم أن النهار كله لن يتسع لما أود القيام به من أعمال. نظرت إلى مصرى والحقل، اكتشفت أنى فقدت الرغبة فى العمل. أخذت الفأس والشرشرة، خبأتهما تحت شجرة. اتجهت إلى حاصل الساقية، به بعض المياه الراكدة، غسلت فيها وجهى وقدمى. تركت وجهى لهواء ساعة الغروب حتى جف. فكرت أن أتوضأ لأصلى ما فاتنى من فروض اليوم، اضطرابى وتشتت عقلى جعلنى لا أصلى. فى الدوار، بدت الجاموسة والبقرة والحمار والخرفان كاليتامى. قمت أنا ومصرى. عدنا إلى البيت مبكرين عن كل يوم، أحسست بالغرابة، تعودت أن لا أترك الحقل إلا بعد أن تتوه ملامحه فى عتمة المساء. خيل إلىّ أن الأشجار والقنوات والساحات السمراء التى تبدو من الأرض تعاتبنى على تركى لها فى هذا الوقت المبكر.

أمام بيت العمدة، مررنا بصعوبة من الزحام. أوقفنا أحد الخفراء، أصر على تقديم أكواب الشربات لنا، شربات حمراء تفوح منها رائحة زهور ذقن الباشا. مصرى اقترب من الخفير، أزاحه من طريقنا بيده، كاد الأمر أن يصل إلى العراك، ولكن حالة الفرح جعلت الخفير يضحك علينا، نحن الذين نرفض كرم العمدة.

فى البيت اتضحت لنا الحكاية، حضرت مجموعة من الفلاحين مستأجرى أرض الإصلاح، قالوا إنهم سمعوا بصدور حكم ضدنا، بيد أن أحدا لم يستدعنا، حكم غيابى، نحن لم نستدع لأننا لسنا طرفا فى القضية، العمدة رفع قضية ضد الحكومة، ما دخلنا؟ أكد البعض أنه من حقنا استئناف الحكم. قال آخر إن كلامنا سابق لأوانه، لننتظر حتى يحصل العمدة على صورة الحكم ثم يبدأ إجراءات التنفيذ، فى هذه الحالة نتحرك فورا بشكل جماعى. قالوا إن يدا واحدة لا يمكن أن تصفق أبدا، ولا بد من تعاوننا. ولكن فلاحة مات زوجها وتعول أولادها قالت: إن المياه لا يمكن أن تطلع فى العالى أبدا، وأن الأرض سيأخذها العمدة مهما فعلنا. هاج مصرى، قال إن ذلك لن يحدث أبدا، سندفع حياتنا ثمنا للأرض.

فى اليوم التالى لم يكن لأحد فى البلد حديث إلا عن حكاية الأرض وعودتها للعمدة، وفى مثل هذا الجو تناثرت شائعات كثيرة دارت حول معنى واحد: العمدة مصر على أخذ أرضه.

طرقة على الباب أطارت صوابى، ثلاثة أيام قضيناها فى الخوف والترقب. قالوا لنا يوم الحكومة بسنة، وصورة الحكم لن تصل إلى العمدة قبل ثلاث سنوات أو أكثر. فى اليوم الذى صدر فيه الحكم، طلب العمدة سيارة مخصوصة، ركبها ومعه كاتب حجرة التليفون، وسارا على الطريق الموصل إلى المركز. قال الكل إنه سيحضر بعد قليل وفى يده صورة الحكم لكى ينفذ من الغد. جارى أكد لى أنه شاهد العمدة وقت عودته ولم تكن معه صورة الحكم، بل كان شاردا تائها وكأن جبال الهم والنكد قد ركبته.

فى اليوم الثالث، أتى ضابط البوليس ومعه ثلاثة عساكر يركبون خيل الحكومة البيضاء، التى يثير دخولها قرانا الخوف فى القلوب. جمع الضابط مستأجرى الأرض التى تقرر إعادتها للعمدة، أحضرونا من كل مكان،

قابلنا الضابط فى غرفة السلاح بدوار العمدة. قال لنا الضابط باختصار: صدر حكم بتسليم الأرض التى معنا للعمدة، فهى أرضه أساسا. ولما كانت هذه الأرض وقت الاستيلاء عليها مع العمدة، وليست مؤجرة لأحد، فيجب أن تعود له بدون مستأجرين، وكل من معه عقد إيجار من العمدة قبل الاستيلاء على الأرض سيظل بها، أما كل العقود التى حررها الإصلاح الزراعى فهى باطلة ويجب تسليم الأرض للعمدة فورا. والضابط كرجل بوليس لا ينسى أنه مصرى، وأننا أهله، ولذلك فقد فضل أن يقابلنا كأهل فى جلسة ودية، لكى يطلب منا هذا الطلب، إن سمعنا كلامه فأهلا وسهلا، وإن رفضنا بينه وبيننا القانون. وهو واضح وصريح وقاطع، لا بد من عودة الأرض إلى العمدة. وحضرة الضابط سيتوسط لدى العمدة ليرأف بحالنا، ولن يرضيه أن يتركنا بدون أرض نزرعها، نحن أهل، وحياتنا يظللها الحب لا الكراهية، والتآخى مكان التنافر.

وقف واحد منا وقال:

ـ وما مصيرنا نحن وأولادنا؟

قال له الضابط:

ـ لكم رب، وبعد الله لكم العمدة.

وأنه سيتولى إبلاغ المسئولين موقفنا لكى يتصرفوا بشأننا، ولن تترك مصر أبناءها بدون أرض أو عمل، مصر تكرم الغرباء، فما بالك بأبنائها.

قال فلاح آخر:

ـ هذا ظلم.

رد عليه الضابط:

ـ إن هناك حكما قضائيا يجب تنفيذه.

أما عن القضاء أو ظلمه فذلك يتقرر فى ساحة القضاء ونحن نعيش ـ والحمد لله ـ عصر سيادة القانون، ولن يعلو صوت فوق صوت القانون. وعلينا تنفيذ الحكم الصادر ونتظلم منه بالطرق القانونية، ولكن بعد تمام التنفيذ، وبعد هذا فإن صدور حكم لصالحنا يعيد إلينا الأرض فورا، وهو يتعهد بتنفيذه.

حمدت الله، مصرى غير موجود، لو كان معنا ما عرفت ما يمكن أن يحدث منه للضابط. تحولت الجلسة إلى عراك وخناقات . قال الضابط إن كل مهمته هى تنفيذ الحكم الصادر، ويستحسن تسليم الأرض بالتى هى أحسن وأنه سيمهلنا يومين، من يسلم أرضه بالذوق كان بها، ومن سيرفض سيلجأ الضابط إلى الإجراءات القانونية بما فى ذلك الاستيلاء على الأرض بقوة السلاح.

حدث هياج بيننا ولكن الضابط تصلب فى جلسته ووضع كابه على رأسه ووقف. حياه العساكر الذين حضروا معه والخفراء الذين كانوا يقفون فى غرفة السلاح. تركنا وذهب إلى العمدة، خرجنا ونحن نضرب كفا بكف. تفرقنا، ويبدو أن الضابط أعطانا هذه الفرصة لنختلف: بعضنا أعلن أنه سيهاجر تاركا مصر بعد أن انتشر الظلم فيها بهذه الصورة، يأخذون ممن لا يملك ويعطون لمن معه الدنيا بما فيها، والبعض قالوا إنه أشرف أن نشترى بثمن الأرض والمواشى أسلحة ونقاوم حتى الحكومة نفسها، أكد المتحدث كلامه بأن هذا لو حصل فى صعيد مصر لما خرج هذا الضابط حيا، حتى لو كان فى حراسة جيش بأكمله.

افترقنا دون أن نتفق على أمر ما. حدث هذا وقت الظهر. لم أذهب إلى الحقل. وقت الأصيل حضر مصرى بالبهائم، قضيت الوقت حتى عودته

بمفردى، أروح وأجىء مع الأفكار المضطربة بداخلى. لم أكن أعرف ماذا سأفعل.

قلت لنفسى: إن ما سيمشى على الآخرين يسرى علىّ. ولكن كانت هناك أمور تخصنى مع العمدة، الخفر والذهاب إليه كل ليلة. قلت لن أذهب حتى أعرف ماذا سيفعل معنا جميعا. شاهدتنى زوجتى ساهما، قالت إن العمدة قد يترك لى أرضى، فأنا خفيره الخاص وهو يحبنى. صحت فيها، رفضت كلامها، وصممت أن أضع يدى فى أيدى الآخرين مهما حدث.

وأتت الطرقة على الباب، كانت عنيفة، الكلب نائم خلف الباب مباشرة، هب من نومه مذعورا، نبح بصوت عال، وأمسك فى خشبة الباب بأسنانه. قمت، فتحت الباب، كان الخفير النوبتجى فى حجرة التليفون هو الطارق، قال إن العمدة يريدنى لأمر هام. ساعتها لم يتوقف عقلى طويلا أمام المسألة. لبست مداسى لأذهب معه. نبهتنى زوجتى، لأن الشاى طاب. جلس معى الخفير، شاركنى فى شرب الشاى. ذهبنا معا. تصورت أن العمدة يريدنى فى عمل أقوم به فى أحد حقوله غدا، وأنه أرسل فى طلبى لكى ينبه علىّ قبل أن ينام مبكرا.

وصلت الدوار. وجدت كاتب حجرة التليفون فى انتظارى. قال له الخفير الذى كان معى، إنه أحضرنى للعمدة. قال لى الكاتب تفضل بالجلوس، مما أدهشنى. أرسل الخفير ليحضر لنا براد شاى من منزل العمدة. أفسح لى مكانا بجواره على الكنبة العالية. استجابتى المترددة جعلته يشدنى بيده ويجلسنى بجواره، وفى حديثه حام حول ما يريد قوله لى. أكد أن العمدة رجل طيب، وأنه يحبنى بشكل خاص، وأنه قدم آلاف الخدمات لأهل البلد، ولا يوجد بيت فى البلد إلا وقدم العمدة خدمة لأحد من أهله. ولكن العين لا تكره إلا من هو أعلى منها، وتلك عادة

قديمة فى مصر. العمدة يقول عنى أنى كوم وأهل البلد كلهم كوم آخر، ولهذا أرسل فى طلبى الليلة، لأنه سيطلب منى خدمة بسيطة. وهو على ثقة أنى سأقـدم الخدمة لأنهـا فى مقـدورى. بدأ الأمر يزعجنى، لماذا مثل هذا الكلام الذى يلف ويدور؟! منذ أن جئنا إلى الدنيا والعمدة ابن عمدة، ومن نسل عمدة أما نحن فقد خلقنا لكى ننكفئ على الفأس العمر كله، ونموت والقدم مغروس فى الطين والظهر قد تقوس من كثرة الانحناء. العمر كله انحناء. من قبل كان العمدة يشير فقط ونحن ننفذ. إن أى أمر لا يستغرق قوله ثانية واحدة. هذه المرة، شعرت بالخوف يسرى فى جسمى مثل دبيب النمل عندما ننام فى الحقول وتسرح فى أجسامنا كل حشرات الأرض. كدت أقول كلامى هذا للكاتب ولكن استمراره فى الحديث جعلنى أسكت.

حضر العمدة، وقفت. وجدته يمد يديه لى، سلم على. قلت فى نفسى: إن أمرا ما قد حصل. لا بد وأن الحكومة ألغت حكم المحكمة الذى صدر بعودة الأرض إلى العمدة. فرحت وشعرت بشوق للأرض، تخيلت نفسى وأنا أذهب إليها فى الغد ومعى بهائمى. أخذت يد العمدة اللينة والناعمة بين كفى الجافتين المليئتين بالشقوق مثل الأرض الشراقى. الخواتم التى تزين أصابعه لها فصوص اصطدمت بباطن يدى. أما يد العمدة فقد كانت ثقيلة وسمينة ودافئة وممتلئة باللحم. اقتربت من ظهر يده لكى أقبله، انغرست شفتى فى طيات اللحم، تذكرت أنى لم آكل لحما من الموسم الماضى. تهت وأنا أحسب كم من الشهور مضى على آخر موسم، لم يتمكن ذهنى المتعب من الحساب المعقد للأيام والشهور.

ترك العمدة يده لكى أقبلها، إنه يتصور أن ذلك يسعدنى، وهو لهذا يتركنا حتى نشبع من التقبيل. طال تقبيلى. قال العمدة:

ـ أستغفر اللـه يا ابنى.

مد يده، ربت بها على ظهرى، تركها، نامت على سلسلة ظهرى. يقول لك ثقلها أنها يد من أيام الرخاء الأولى، وأنها سمنت هكذا لأن يدى وأيادى آلاف مثلى لا يكسوها شىء. خفت أن يكون عظم سلسلة ظهرى المدبب كالمسامير والشوك آلم يده. سحب يديه، اليمين من بين كفى واليسرى من فوق ظهرى. اتجه نحو الكنبة. لم أصدق نفسى عندما وجدته يجلس ويجمع جلبابه الواسع، والذى يكفى لتفصيل ملابس لى ولأسرتى كلها منه، ويطلب منى الجلوس بجواره.

مددت يدى، أخذت ذيل جلبابى الضيق على جسمى، جلست على الأرض بجوار الكنبة الكبيرة التى يجلس عليها العمدة. أقسم برحمة من ماتوا له أن ذلك لن يحدث، شدنى بيده، أجلسنى بجواره. أشار بيده فصرف كل الحاضرين، لم يبق سواى معه والكاتب، تتوسطنا صينية عليها براد شاى وثلاثة أكواب كبيرة تلتف حول وسطها أحزمة مذهبة.

عندما خرج الحاضرون وصلت لحد الدهشة. كنت خائفا مما يحدث حولى، وكنت أود أن يتكلما لكى أستريح من الانتظار والتساؤلات التى تطن مثل النحل فى رأسى. إن التكريم لا يتم لوجه اللـه تعالى، ووراءه مطلب ما. سعدت عندما انتهت المجاملات ودخلوا فى الموضوع مباشرة. قال الكاتب: الخدمة التى يطلبها منى العمدة صعبة وسهلة، معقدة وبسيطة فى الوقت نفسه، ولكنها فى يدى. فهل أنا على استعداد لأدائها؟ قلت: نحن تحت أمر العمدة. صمت الكاتب، طلب من العمدة أن يتكلم بنفسه، حتى أصدق أنه يطلب منى خدمة. تنحنح العمدة. أخرج منديلا شفافا كورقة السيجارة له رائحة معطرة ملأت الحجرة، وبصق فيه وتنحنح من جديد. شعرت أننى أمام رجل يأكل حتى يشبع طول عمره، وأن زوره مسدود

فى هذه اللحظة من كثرة الأكل، ولهذا يخرج الصوت محملا برائحة اللحم والدجاج والسمن والبصل المحروق. اقترب العمدة منى أكثر. سألنى عن موضوع الأرض، ماذا قررت أن أفعل؟ استراحت نفسى أخيرا. تصورت أنى وصلت إلى الهدف من اللف والـدوران. قلت له إننا لم نقرر ماذا سنفعل. توقف أمام كلمة إننا، سألنى:

ـ أنتم من؟

قلت له: إننا الفلاحون الذين سيطردون من الأرض، ولم نقرر بعد ما سنفعله، وإن كان أكثرنا يميل إلى مقاومة الضابط بالقوة إن لزم الأمر. لم يغضب العمدة من كلامى، ضحك فى الخفاء. قال لى إنه ستكون لى معاملة خاصة بصرف النظر عن الجميع. قلت له إن الإنسان يربط من لسانه وكلمة الرجل تساوى عمره، وأنا تشاورت مع الأخوان ولا بد من رجوعى إليهم. قبل أن أكمل قال إنه سيعاملنى معاملة خاصة لأن له خدمة عندى، وهذه المعاملة الخاصة لن تتم بسبب سواد عينى، وخدمته التى يطلبها منى هى أن يقوم مصرى بمهمة بسيطة بدلا من ابنه الصغير ابن الست الصغيرة التى تقدم لى العشاء والإفطار وأعطف عليها كأنها ابنة من أبنائى وتحبنى هى كوالد لها.

المهمة التى سيذهب فيها مصرى فوائدها لا تحصى ولا تعد. «تدخل الكاتب موضحا أن العمدة ينتظر موافقتى على ذهاب ابنى، وكل ما فى أعمالنا بثمنه، وبمجرد الموافقة سندخل فى الكلام المفيد، وسأعرف ما سآخذه من العمدة بالتفصيل».

عرفت الحكاية على حلقات وعلى مدى نصف الليل الأول كله. كنت أسمع ثرثرة الليالى فى الشارع الرئيسى الذى يمر بجوار دوار العمدة، المنادى ولعب الأطفال ومراهنات الرجال والباحث عن دجاجة ضائعة

أو خروف ضل الطريق أثناء العودة من الحقل، ومن يسأل عن فلاح عليه دين، ومن يشكو خلو الجيب والبيت من مليم واحد. وسط هذا، شربت ما قالاه لى بهدوء رشفة رشفة.

قال الكاتب: المهمة المطلوبة من مصرى تتم فى غمضة عين، أن يذهب إلى المركز فى مشوار ليتسلم أوراقا هامة بدلا من ابن العمدة آخر العنقود، ثم يعود. نفقات الذهاب والعودة سنأخذها من العمدة، أكمل العمدة بنفسه نقطة نسيها الكاتب، إن مصرى سيأخذ الورق ـ غير الهام والذى لا قيمة له ـ من المركز ويسلمه فى الإسكندرية فى نفس اليوم ويعود إلى البلد قبل أن تغيب الشمس، وإن مصرى يستطيع عمل هذه الخدمة البسيطة، ويمكنه القيام بما هو أكبر منها ألف مرة. كررت سؤالى عن السر فى عدم ذهاب ابن العمدة وما أهمية ذهاب مصرى بدلا منه. وهنا أتت الضربة الأولى.

ـ مصرى سيذهب ـ قال الكاتب ـ على أنه ابن العمدة.

التف الخوف حول قلبى، سألت عن طبيعة الورق:

ـ ورق تجنيد.

قالها العمدة وهو يشيح بيده، كأن الأمر لا يستحق مجرد الاهتمام به. قبل أن أستوعب سألنى الكاتب إن كنت قد وافقت. أشرت بيدى لرأسى دلالة على الاضطراب الحاصل فى ذهنى. أشار له العمدة، وهنا فقط رفع الكاتب الغطاء عن الطبخة وشممت رائحة الحكاية. اندفعت الكلمات من فم الكاتب. كان مضطربا، ولذا خرجت من فمه نقاط رزاز بيضاء، استقر بعضها عند ركن فمه وعلى طرف لسانه. اتسعت دائرة الرزاز، وصلت إلى وجهى وملابسى، وتاه ذهنى فى محاولة يائسة للجرى وراء الكلمات

التى قالها الكاتب. حاولت أكثر من مرة أن أستوقفه وأفهم منه. سرعة تدفقه منعتنى. حتى فمى فقدت القدرة على تحريكه، انفصل الفكان عنى. تركت يدى تسقطان بجوارى. انزلقت حبة عرق ضخمة تحت ملابسى، تسللت من رقبتى إلى صدرى، شعرت بها تجرى وسط شعر الصدر متجهة إلى أسفل فى سرعة، وكلما تقدمت فى سيرها ازدادت درجة برودتها.

قال الكاتب:

ـ منذ يومين ورد طلب لابن العمدة ـ الذى هو فى منزلة مصرى ـ ليذهب إلى الجيش، بمعنى أصح ليؤدى الخدمة العسكرية. لأسباب وظروف يطول شرحها، والكلام عنها مثل الهم على القلب، لا يريد العمدة إرسال ابنه. وهذه الظروف أعرف بعضها، فالعمدة يعتبرنى من أهل بيته، ولهذا اختارنى دون سواى لحراسته. بحث العمدة عن كل الحلول. ضاقت الدنيا فى وجهه ولا بد وأنى أعرف معنى ضيق الدنيا فى وجه إنسان، لو ذهب ابن العمدة إلى الجيش لخرب بيته وضاع كل ما بناه. أخيرا عثرنا على حل سهل وبسيط، أن يذهب شخص آخر بدلا منه. ولما كان العمدة يعتبرنى أحن عليه من أخيه وأن مصرى يعد ابنه، سيذهب مصرى إلى التجنيد بدلا من ابن العمدة. وإن وافقت فالعمدة على استعداد لكى نتكلم، سيعطينى كل ما أطلبه وهو قادر على تحقيق المستحيلات. المهم موافقتى على هذا الطلب البسيط.

ـ هل وافقت؟

أعقب السؤال فترة صمت ثقيلة:

ـ على أى شىء؟

تساءلت بدورى. نظر كل منهما للآخر. بانت بوادر الغضب على وجه

العمدة، طلب الكاتب منه الهدوء. ببطء فهمت الخدمة البسيطة المطلوبة منى أو بالتحديد من مصرى، ابنى الوحيد على كوم البنات، عليه أن يذهب إلى التجنيد بدلا من ابن العمدة، الذى يعد الابن رقم سبعة. استمر الإلحاح من جانبهما لأقول كلمتى. لم أشأ الرفض أو القبول. وعلى طريقتى الخاصة فى التصرف فى الأمور الصعبة على الذهن، طلبت منهما مهلة من الوقت حتى أرد عليهما. رفضا المهلة.

قال الكاتب:

ـ إن كانت المهلة بقصد التشاور أو أخذ رأى أحد، فإن ذلك سيكون ضارا للعمدة، ما عرضه علىّ إما أن أرفضه كله أو أقبله كله، وفى كلا الحالين لا بد من بقاء السر فى بئر عميقة.

ـ حتى صاحب الشأن.

ـ من؟

ـ مصرى نفسه.

ـ وكيف؟

قال الكاتب:

ـ إن معرفة مصرى يجب أن تتم على مراحل، وأن لا يقدم له الأمر مرة واحدة. لا أحد يعرف كيف سيتصرف مصرى إزاء الطلب. أبناء هذه الأيام يبدون مثل البحار العميقة.

قلت لهم:

ـ سأشاور عقلى وأخلو إلى نفسى قليلا.

عرضوا علىَّ أن يتركوا لى الدوار.

قلت لهم:

ـ إنى أميل إلى تأجيل الرد إلى الغد وسيكون خيرا.

لا أعرف لم قلت الجملة الأخيرة! هذا من أخطر عيوبى، فى بعض الأحيان تخرج من فمى كلمات لا أفهم ماذا تعنيه جيدا. فرحت، سأذهب أخيرا، سيتركوننى فى حالى. قمت من مكانى. أمسكنى العمدة.

قال لى:

ـ الدنيا أخذ وعطاء ومن يقم بعمل ينل جزاءه. وسواء رفضت أم قبلت. قدم لى العمدة مكافأتى، تاركا قبولى أو رفضى لضميرى ولن يرضيه أن أتركه فى ورطة دون حل.

سألنى: كم فدان من أرض الإصلاح معك؟

ـ ثلاثة أفدنة.

أكملت:

ـ إنها محرر بها عقد إيجار من الإصلاح الزراعى، والعقد مسجل فى الجمعية التعاونية الزراعية. ومنذ خمس سنوات ونحن نسمع أن الإصلاح سيملكنا الأرض، على أن تحتسب قيمة الإيجار من ثمن الأرض. الأيام مرت دون أن يتحقق الحلم، إلى أن سمعنا الليلة عن مصيبة أخذ الأرض منا.

قال الكاتب:

ـ أنتما ـ يقصدنى والعمدة ـ أصبحتما أهلا، فالخدمة التى قدمتها للعمدة، تجعل الدم واحدًا فى العائلتين.

ضحكت فى سرى من الكذب ومسح الجوخ. تذكرت: منذ أيام الطفولة ونحن نعرف أن الدم الذى يجرى فى عروق العمدة دم أزرق فى

لون السماء الملأى بغيوم الشتاء، وأن رائحته عطرة، على عكس دمنا نحن الذين نكمل عشاءنا نوما، فهو أحمر زفر ملوث. ربما ظهرت السخرية على ملامح وجهى. استدرك الكاتب موضحا، قال إنه صادق عندما قال إن الدم أصبح واحدا. شرح الأمر: ذهاب مصرى بدلا من ابن العمدة يدخل تحت بند ضريبة الدم. وهذا أكبر دليل على محبة أبناء مصر لبعضهم الآن، والتى لم تحدث من قبل ولا فى عصور ما قبل التاريخ. تدخل العمدة:

ـ لن تُطرد من الأرض مهما حدث.

كررها العمدة ثلاث مرات. أخرج المصحف المذهب والذى يحتفظ به بين الأوراق ذوات العشر جنيهات، والتى تملأ حافظة نقوده وتبدو مثل السكاكين من حدتها. منعته من الحلفان على المصحف. قال إنه بالنسبة لأرضى سيلغى عقد الإيجار والمحرر لى من الإصلاح الزراعى حتى لا يتكلم أحد، ستبقى الأرض معى وسأزرعها مناصفة، بينى وبين العمدة. يقدم هو الأرض، وأقدم أنا جهدى وعمل أولادى طول العام، ونقسم المحصول والتكاليف مناصفة، على أن يخصم من المحاصيل إيجار الأرض، يأخذه العمدة. والإيجار ليس سنويا كما تفعل الدنيا كلها، ولكن حسب الزرعة، ويقدر على أساس نوع الزراعة، فإيجار زرعة قطن لن يتساوى مع زرعة برسيم.

استطرد العمدة فى الكلام، سنحسب ما ستأخذه. فدان الأرض إن زرعه فلاح ماهر، وابتعد عن الزرعات التقليدية، وأغلق أذنه دون الكلام الفاضى عن الاقتصاد القومى ومصالح البلاد والتصدير والخطط التى لا تنتهى ورفض تنفيذ نظام الدورة الزراعية، الفدان الواحد يعطى ألف جنيه فى السنة، إن كان مزروعا حدائق، أما الزرعات العادية فلن يقل عائدها عن ستمائة جنيه فى السنة. سأقلل الرقم، لنتصور أن الفدان يعطى أربعمائة

جنيه فقط، سأضع فى الاعتبار الآفات والعطش وعين الحسود والرشاوى وتسهيل الأمور، أى أنك ستحصل على مائتى جنيه من الفدان، الثلاثة أفدنة ستعطيك ستمائة جنيه. فى مدة التجنيد تحصل على ألف وثمانمائة جنيه أو ما يقارب من الألفين، ولن أدخل فى الحساب المواشى والحطب والطعام فنحن أهل. إن نجحت التجربة وكنت ماهرا فى العمل، من الممكن إعطاؤك مساحات أخرى من الأرض مستقبلا. هذا الاتفاق لن يدون فى أوراق وسيبقى سرا بيننا، وسيقول العمدة إنى أعمل فى أرضه بالأجر. ومن ناحية أخرى - ما زال العمدة هو الذى يتكلم - حراسة الدوار مستمرة بأجر ثلاثة جنيهات فى الشهر، بواقع عشرة قروش عن كل ليلة، وهو يعرف أن الدنيا أمان ولن يجرؤ أحد على الاقتراب من ممتلكات العمدة، وهذا معناه أنى آخذ ثلاثة جنيهات شهريا نظير نومى فى دوار العمدة بدلا من النوم فى منزلى. ولكنه وبعد الخدمة العظيمة التى سأقدمها له، قرر رفع المبلغ إلى الضعف، عشرون قرشا فى اليوم. وستة جنيهات فى الشهر تساوى المعاش الذى أحصل عليه من الحكومة. بحسبة بسيطة، دخلى اثنا عشر جنيها فى اليوم الأول من كل شهر، وهو أكبر من مرتب المدرس الإلزامى ووكيل مكتب البريد والمشرف الزراعى فى الجمعية التعاونية الزراعية، وأقل من مرتب حضرة الضابط الموجود فى النقطة الثابتة ليتحكم فى عباد الله المخلصين. لنكمل الحسبة - وهو لا يحسدنى، ومن يحسدهم أصحاب العيون الفارغة - سيدخل بيتى اثنان وسبعون جنيها فى السنة؛ أى مائتان وستة عشر جنيها فى ثلاث سنوات. لو أضفنا المبلغ العائد من الأرض يصل المبلغ إلى ألفين وستة عشر جنيها. مصرى فى الجيش مرتبه ثلاثة جنيهات وعشرة قروش فى الشهر.

من الممكن عمل لعبة ونحصل على بدل تعيين وبدل ملابس بعد تحويله إلى المخابرات الحربية بواسطة، يصل المرتب إلى خمسة عشر جنيها شهريا،

بخلاف الطعام وركوب المواصلات بالمجان، وقضاء مصالحه ومصالح العائلة، من المنتظر أن يحصل على مائة وثمانين جنيها سنويا؛ أى خمسمائة وأربعين جنيها خلال المدة. عملية جمع بسيطة وتجد أنك حصلت على ألفين وخمسمائة وستة وخمسين جنيها.

نحن الآن فى أواخر شهر يونيو سنة ٣٧. إن سلم مصرى نفسه فى أول يوليو يخرج من الخدمة فى أول يوليو ٦٧، وهى فترة قصيرة فى حياة الناس تمر دون أن يدرى أحد كيف مرت، غمضة عين قصيرة. وإن لم يخرج مصرى من الجيش فى هذا التاريخ قد تستبقيه القوات المسلحة، وابتداء من أول يوليو ٦٧٩١ يصرف له الراتب العالى، وهو مبلغ لا يقل عن عشرين جنيها ويصل إلى الأربعين فى أحوال كثيرة، وهو يعتمد على الوساطة ورضى القواد وشطارة المجند وقدرته فى الحصول على أكبر قدر من الشرائط والأوسمة والنياشين، ويصرف هذا المرتب إلى أن يتم تسريحه من الخدمة. فى يوم التسريح يقوم قائد وحدة مصرى بعرض قائمة عليه، يقبل أو يرفض منها ما يشاء بحريته التامة؛ إما أن يبقى فى الجيش ويصبح مجددا وهو أحسن درجة من المتطوع، ومرتبه لا يقل عن الخمسين جنيها، وبعد خمس سنوات يصل إلى رتبة الضابط، يبدأ برتبة ملازم. مصرى صغير فى العمر، وهذا معناه أنه سيحال إلى المعاش برتبة لواء، نفس رتبة حكمدار الأمن فى المحافظة، هل تتصور حدوث هذا؟ إنه أكبر من الأحلام. إن رفض مصرى البقاء فى الجيش ـ وهو حر فى ذلك ـ يحصل على خطاب رسمى من هيئة التنظيم والإدارة بالقيادة العامة للقوات المسلحة موجه إلى المكان الذى يرغب فى الحصول على وظيفة مدنية فيه. مصرى ابن الأرض الطيبة سيرفض كل المناصب التى ستعرض عليه فى المدن، لا بد وأن يرفض أن يكون رئيسا لمدينة أو وكيلا للنيابة أو مهندسا أو دكتورا. أعرف أنه يفضل أن يكون معلما فى المدرسة الابتدائية، بالتحديد فى مدرسة البلد،

حتى يحمل نور العلم إلى أبناء البلد الفقراء المساكين. لقد اكتوى مصرى بنار الحرمان من التعليم، ولهذا سيتحول إلى جسر يحمل النور لكل الناس. تساءل العمدة: كم تساوى الوظيفة الأميرية الحكومية. لم أرد. الفم جاف وضربات القلب لها صوت واضح على جدار الصدر الداخلى.

ـ تساوى خمسين فدانا.

الذى رد كان الكاتب.

أكمل العمدة:

ـ ثمن فدان الأرض ألفان من الجنيهات، هذا بخلاف خلو الرجل وهو يساوى ثمن نصف فدان. الوظيفة تعنى دخول مائة ألف جنيه للبيت.

طلب منى التفكير فيمن منا قدم خدمات للآخر. اعترض الكاتب على الطلب، قال إنه ليس هناك فارق، المطلوب هو المصلحة العامة لنا وللبلد ولمصر أم الكل. صمتنا على غير انتظار. اقترب منى الكاتب.

سألنى:

ـ هل شاهدت ليلة القدر فى رمضان الماضى؟ إن كنت قد شهدتها فأمرى مفهوم، وإن لم يكن قد حدث فلا بد وأن معجزة ما قد وقعت لى.

ما حكاه العمدة يدخل بند المعجزات، فهى أمنيات لا يجرؤ بشر على الحلم بها، وكونها تحدث مرة واحدة، أو بمعنى أصح بضربة واحدة، فذلك أمر لا يصدقه إنسان.

قلت له:

ـ لم يخطر على بالى أن ليلة القدر لها علاقة بنا نحن الفقراء. من أيام جدودنا الأوائل والحظ وليف أولاد الناس والأغنياء ومن هم فى غير حاجة إليه، أما نحن.

اقترب منى الكاتب، طلب فتح فمى ورفع شفتى العليا، نظر فى أسنانى، رفع وجهى ليرى جيدا. قال إن أسنانى ليست من النوع المحظوظ، فى مقدمة الفم تكون هناك مسافة واسعة بين السنتين الأماميتين، وهذه الفجوة إذا ولد الإنسان بها فهى دليل سعد لا يمكن وصفه. بدت الحيرة على وجه الكاتب ولكن العمدة أنقذه من الحيرة عندما ضرب فخذى بيده، ضربة أوجعتنى لدرجة الدوخان. قال إن هذه الأوصاف تنطبق على أسنان مصرى. ذكرنى أنه قال لى منذ سنوات ومصرى يخطو الخطوات الأولى: إن هذا الطفل مسعد، أقسم أنه قال لى يومها إن حظه تحت قدميه. صحح الكاتب:

ـ سيادتك قلت قدم السعد.

ـ فعلا قدم السعد.

لا أذكر الحديث ولكنى متأكد أن فى فم مصرى فلجة بين أسنانه، وأن الكثيرين قالوا إنه ولد مسعد. قمت مستأذنا. قال العمدة إنه لا يمكن أن أخرج من منزله بدون عشاء. صفق بيديه. خرج الكاتب ليتعجل العشاء من الداخل. أحمد اللـه، أنى استطعت حكاية الكلام الصعب والمعقد الذى سبق، فهو كلام غريب علىّ، وفيه أرقام ضخمة لم تدخل دائرة حياتى من قبل، وكنت أشك فى مقدرتى على روايتها. ترى هل وفقت؟ لا أعتقد. ولكنى حكيت ما أعرفه جيدا وهذا يكفى.

حضرت الخادمة وعلى رأسها صينية نحاسية صفراء ضخمة، فوقها مفرش من النوع الذى لا أراه سوى فى مآتم الأغنياء. رفع العمدة المفرش،

خرج البخار من الأطباق والأوانى، ورأيت قدمى أوزة أو ديك رومى ترتفعان فى الهواء، لونها أحمر، جرى لعابى، وتحركت مصارينى، وشعرت أن بطنى باتساع الترعة التى تروى حقلى، وأنى لم أتناول طعاما منذ آلاف السنين. شكل الصينية جعلنى أدرك أن الطعام لم يقدم لنا بالصدفة، إنها وليمة معدة من قبل. جلست وفى مواجهتى العمدة، وبجانبى الكاتب. وقف بالقرب منا خفير، زميل سابق لى، بيده قلة وكوب ماء وفوطة. فرحت بالطعام الذى لم أكن أتوقعه، ولم يوضع أمامى مثله من قبل. فى بعض المناسبات كنت أحمل هذه الصينية بعد أن يأكل ضيوف العمدة. وفى المسافة بين الدوار ومنزله أقف وراء باب أو بجوار حائط، آكل بقايا الطعام أو أخفيها فى مكان أمين وآخذها معى إلى بيتى.

نطق العمدة باسم اللـه بصوت عال، وامتدت الأيادى. شاهدت شيئا مثل المذراة التى نذرى بها القمح وإن كانت صغيرة جدا ومن المعدن، والمذراة من الخشب، يقولون عنها الشوكة. أما السكاكين والملاعق فأعرفها، عندى فى البيت سكين من عمر زواجى، وملاعق من الخشب صنعها لنا نجار عندما تزوجت أم مصرى مع الصندوق والطبلية. احترت هل آكل بيدى أم أمسك بالشوكة والسكين، وأفصل قطعة من لحم الأوزة أو الديك الرومى، خفت. هل أمد يدى؟ قد يغضب العمدة. تعكر مزاجى، تمنيت لو أنهم أعطونى نصيبى من الأكل وأكلته بمفردى، وبدون هذه الأدوات التى كرهتها لدرجة الرغبة فى رميها من النافذة. ركنت الشوكة والسكين، أمسكت بالملعقة. اقتصر طعامى على ما يؤكل بالملعقة فقط: الشوربة والأرز والخضار والسلاطة. العمدة كان بينه وبين أنواع الطعام معرفة قديمة، ألفة عمرها آلاف السنين، علاقة حب أفتقدها أنا. أقبل على الطعام. بدت ملامح وجهه ـ وهو يحشو فمه بقطع اللحم ـ مستريحة. كان يبدو أنه يفعل أحب شىء إلى نفسه فى العالم.

بعد تناول الطعام استأذنت. أعطانى العمدة مهلة يومين لأرد عليه. ذكرنى الكاتب بضرورة معرفة مصرى الأمر على درجات. وعدتهم خيرا. خرجت. فى سيرى وجدت صعوبة فى رفع قدمى عن الأرض. انحنى ظهرى واقترب وجهى من الأرض. لم أعد إلى البيت. اتجهت إلى مخازن العمدة، تعجبت من أمر مصرى، من خلاله وبسبب حكاياته عرفت أحوال الدنيا. أيام طفولته لم أعرف عن الدنيا سوى اللقمة الجافة التى كنت أطلب من اللـه أن يديمها علىّ. كنت أقبل وجه اللقمة وظهرها قبل وضعها فى فمى. وفى الليل، ذلك المدى الطويل من الساعات المظلمة البطيئة، لا يكون لى طلب سوى إغماض عينى. فى الصباح أذهب إلى السلاحليك، أسلم البندقية، أدعو فى سرى أن لا يرانى العمدة. لو تصادف ورآنى يأخذنى أعمل فى أرضه الواسعة مسافة النهار كله. طول عمرى وأنا أعانى من الجوع:الجوع إلى النوم، والجوع إلى اللقمة، والجوع إلى الهدمة، والجوع إلى الراحة، العمر كله جوع. حاولت صرف ذهنى عن التفكير فى الأمر. كان ذلك مستحيلا. هل أقبل ذهاب مصرى إلى الجيش بدلا من ابن العمدة؟

ـ مستحيل.

فوجئت بالكلمة تخرج من فمى. ولكن الكلمة لم تكن بقادرة على تبديد خوفى على مصرى. من لحظة خروجى من بيت العمدة، استقر الخوف بداخلى وانتهى الأمر. قلت لأتعب نفسى الآن وستأتى اللحظة التى أغمض فيها عينى وأشد البطانية المتآكلة والمخرمة مثل الغربال على وجهى. وتعال يا نوم. وأصدر أصوات النوم مثل كل الناس الذين أسمعهم بالليل، وأنا فى الدرك، للنوم رائحة أشمها، النوم يقسم الناس إلى نوعين: نوع يشبع من النوم، ونوع آخر محروم من النوم. نوم الأغنياء يبدو أكثر عمقا، أثناء مرورى على سرايات أولاد الناس بالليل، أخاف أن

تصحيهم خطواتى، صحيح أننى هنا لحمايتهم من أولاد الكلب، ولكن يجب ألا أوقظهم. هكذا كان حالى أيام الخدمة. قلت: بعد المعاش أنام نوما لا نهاية له. وخرجت. أيام قليلة وعدت للخفر مرة أخرى عند العمدة. وأتت حكاية مصرى وطيّرت بقايا النوم من عينى، وهذا ما ترك آثاره الواضحة على ملامح وجهى.

هل قلت وجهى؟ إذن لأقدم لك هذا الوجه: فى وجهى أكثر من سنطة، عيناى حمراوان على الدوام، من بعيد ترى بياض العينين لونه أحمر. والجفون بلا رموش، ضاعت فى ليالى السهاد الطويلة. أنفى مثل صنبور المياه المركب بجوار بيتنا، والذى لا ينزل منه الماء منذ أن ركبوه.

ضربة على الباب جعلتنى أقول، ليرتاح الناس إذن. كان الكل يتكلم عن مصرى: كيف يتفوق ابن رجل فقير؟ من أين يأتيه الذكاء؟ عمن ورث العقل؟ قالت لى أم مصرى من أيام، إن الكعكة فى يد اليتيم تبدو أمرا عجيبا. مصرى حكايته غريبة. بعد حصوله على الشهادة الإعدادية احترت. التعليم أحسن من أى طريق آخر. إنها أمنية قديمة أن يدخل ابنى منزلنا ذات يوم وهو أفندى مثل كل المتعلمين. مصرى كان تلميذا ناجحا. ذاع صيته فى البلد، وهو الأول دائما على فصله، بل وعلى المدرسة كلها. من يومه وهو الألفة، حتى وهو فى التعليم الإلزامى. كان تفوقه السبب فى أن كثيرا من الأكابر جاءوا إلىّ، وطرقوا بابى، ورجونى أن يذاكر مصرى مع أبنائهم، حتى يضمنوا لهم النجاح.

أيامها قال الناس فى تفسير حدوتة مصرى: إن الفقراء أذكياء والأغنياء أغبياء. لم يدخل عقلى هذا الكلام. الغنى هو الذى يملك أن يريد وأن يحقق إرادته. يملك الغنى أن يكون ذكيا، أمواله قادرة على شراء أى كمية من الذكاء يريدها.

يوم حصول مصرى على الإعدادية نشأت مشكلة؛ المدرسة الثانوية لا توجد إلا فى المركز، والمدارس الأخرى مثل الصناعة والزراعة والمعلمين مكانها فى المديرية، المدينة الكبيرة والتى يوجد بها الحكمدار والمحافظ. اختلفت مع مصرى؛ كان يتمنى دخول المدرسة الثانوية، القسم الأدبى، ويدخل الجامعة، ويعمل مدرسا فى الجامعة نفسها بعد عمر طويل، بإذن اللـه. أما أنا، أحسن وظيفة فى نظرى فى العالم كله، أن يكون مدرسا إلزاميا فى المدرسةالابتدائية فى بلدنا. رفض مصرى. تكلم عن التعليم العالى وعن التعليم المتوسط. قال إنه يود تحقيق ما أطلبه، سيكون مدرسا. ولكن بعد تخرجه من كلية الحقوق أو الآداب، وإن كان يفضل الأولى.

يومها، نظرت إلى مصرى فى عجب ودهشة وعدم فهم. تحيرت. متى عرف مصرى كل هذا؟ وافقته على تحقيق أحلام عمره. لكنى اكتشفت أن إدخال مصرى مدرسة بعيدة عن البلد أمرمستحيل، مطلوب له سكن، والسكن يحتاج إلى فرش، وأن تكون فيه مياه ونور، ولن يستطيع مصرى الذهاب إلى مدارس البندر إلا بملابس غالية، وسيحتاج لطعامه وأجرة سفره إلى البندر والعودة كل أسبوع مرة. وأثمان الكراسات والكتب والأقلام. أنا رجل فقير، من اليد إلى الفم، صحيح أنى أزرع ثلاثة أفدنة، ولى مرتب خفير وعندى رأسان من الماشية شركة. ولكنى كنت مسئولا طوال السنوات التى مرت عن إطعام عشرة أفواه مفتوحة كل يوم تطلب الطعام والكساء: مصرى وخمس أخوات بنات، وأم الأولاد وأمى وحماتى. من أين لى المال الذى يفتح بيتا جديدا فى البنادر الغالية، التى يسرقون فيها الكحل من العين ويبيعون الماء والهواء. كان جهدى ضعيفا.

اهتم الناس فى البلد بأمر مصرى. كلمنى أكثر من رجل، طلبوا منى إكمال تعليمه فى البنادر.

قلت للناس:

ـ العين بصيرة واليد قصيرة. ماذا أفعل؟

غضب الناس، قالوا لا حول ولا قوة إلا بالله، الدنيا غير مفهومة، تعطى الخلق لمن لا أذن له، لحكمة لا يعرفها إلا الله وحده. ناديت مصرى ـ كنا فى الحقل ـ قلت له: أنت الابن الوحيد على خمس بنات لا أستطيع الإنفاق عليك فى البنادر، عندى ثلاثة أفدنة إيجار سنمتلكها ذات يوم، والفدان يساوى وظيفة ثابتة، صحيح أن هذه الأفدنة الآن بالإيجار، ولكنى واثق أننا سنمتلكها ذات يوم، وهذا اليوم ليس ببعيد، انتظرناه أكثر من عشرين سنة، وهو آت، والأفدنة ستكون لمصرى وحده، أخواته البنات ليس لهن هدف سوى الزواج. أما الأرض فلمصرى، ستعوض الأرض التعليم. وهيا نبحث عن بنت الحلال ليكمل نصف الدين. ونبنى العش الصغير، عش الفقراء.

انتهيت من كلامى. رفع مصرى وجهه إلىّ. قبل كلامه، أدركت أنه كبر عشر سنوات، فى اللحظات التى استغرقها كلامى، كان غاضبا. كز على أسنانه. عيناه أصابتهما غرغرة دموع. سمعت خروشة اصطدام أسنانه مع بعضها البعض. قال إنه سيكمل تعليمه بأى وسيلة، فهو لا يعرف المستحيل، وهو لم يخلق لفلاحة أرض لا يمتلكها. سيكمل تعليمه بنظام المنازل.

ـ منازل؟!

تساءلت، رده علىّ جعلنى أدرك أن مساحات واسعة من الأراضى والبحار تفصل بيننا. شرح لى أنه يمكنه الالتحاق بالمدرسة الثانوية فى المركز من المنزل ويبقى هنا، حيث يذاكر ويعتمد على نفسه ويدخل الامتحان فى آخر السنة، وهو يضمن النجاح فى السنوات الثلاث من الآن.

لا أعرف لماذا أحكى هذا الكلام أكثر من مرة الآن، وأنا واقف فى حراسة ممتلكات العمدة، ومعى بندقية العمدة التى اشتراها ورخصها من أجلى وسلمها لى. حقيقة أنا أحاول الهروب من موضوع مصرى، ولكن ذلك مستحيل. من البداية كنت أميل إلى رفض الحكاية كلها؛ الدنيا وبكل ما فيها لا تساوى التراب الذى يسير عليه مصرى، ولكن عروض العمدة وما وعدنى به جعلت رفض الموضوع ليس أمرا سهلا كما تصورت، خاصة الأرض. سمعت بالأمس أن الأرض رجعت إلى أصحابها الملاك القدامى فى أكثر من مكان، وأن أرض العمدة ستعاد إليه، سواء رضينا أم رفضنا. كنت جائعا، وما قاله العمدة لى قدم لفمى لقمة أكبر من أفواه أسرتى كلها مجتمعة. ولهذا ترددت، والتردد جعلنى أعجب من نفسى. فى اللحظة التى كان يكلمنى فيها العمدة كان رفضى قاطعا، ولكن بعد أن أخذ الذهن وأعطى ترددت. أتى الليل فأعطى هذا التردد أكثر من معنى. وفى الليالى التى أتت بعد هذا، لم يداعب النوم جفنى أبدا. كان يبدو حلما. وزارتنى يقظة غريبة، لم تحدث لى من قبل. وبدا لى الليل طويلا وبلا نهاية، وكلما اقتربت ساعة الفجر الرمادية الموحشة كنت أشعر باقترابى من قرارى الخاص، ووقت الفجر ينزل على هدوء لا طعم له، وسكينة غريبة. أذهب إلى المسجد، أتوضأ، أصلى، أتعب من التفكير، أقرر استشارة أحد. خوفى من الفضيحة ومن كلام الناس يجعلنى أحتفظ بالأمر داخلى. أعود أتسلم الدوار ومخازن العمدة. هذا الصباح، استغرق التسليم وقتا طويلا.

أخذت الطريق إلى بيتى. وهنا أصل إلى أهم ما فى حكايتى كلها: ماذا دار بينى وبين مصرى بعد عودتى إلى منزلى فى ذلك الصباح الرهيب؟ أطلب عذركم، أعرف أن هذا هو أهم ما تطلبونه منى. ولكنى لن أحكيه مهما تكن الظروف. لا أقدر، لا أستطيع، مجرد الكلام صعب علىّ. كيف أخون مصرى وأتكلم؟ قد تغضبون منى، وتضربون كفا بكف. وتقولون

أنى ضحكت عليكم، وحكيت ما أود حكايته، وعند الجزء الهام هربت منكم. ما حدث بينى وبين مصرى فى ذلك الصباح المفجع ليس سرا، اعرفوه بأى وسيلة كانت، ولكنكم لن تعرفوه منى. أحاول الآن ذكر آخر المعانى التى وردت على ذهنى بعد أن أكملت حكاية مصرى. فى كل مرة أذهب إلى المسجد، يقول الإمام:

ـ لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

وكلما وقع حادث فى البلد، يقولون:

ـ ربنا لا نسألك رد القضاء بل اللطف فيه.

وعندما تحل الكوارث ويموت الناس وتحترق البيوت وتغرق المحاصيل، يقولون وهم ينظرون ناحية السماء:

ـ قضاء أخف من قضاء.

من قبل كنت أعتقد أن هذا الكلام صحيح، ولكنى، وبعد المصيبة التى وقعت لى، أقول بملء الفم: إننى لو كنت قد اطلعت على الغيب، لما كنت اخترت ما حصل لى أبدا.

الصديق

الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الاثنين

٢٢ أكتوبر ١٩٧٣

٢١ بابة ١٩٦٥

الموافق ٦٢ رمضان ١٣٩٣

ليت لى براعة كل كتاب القصة جميعا، منذ عُرف فن الرواية وحتى هذه اللحظة، لكى أوفق فى القيام بتلك المهمة الصعبة على النفس، أقصد سرد الجزء الخاص بى فى هذه القصة الحزينة والغريبة. عموما، هناك قصة فرعية، أنقذ بها الموقف كما يقولون: أكتب إليكم فى لحظة هامة، الثانية والنصف من بعد ظهر الاثنين ٢ أكتوبر، وهذا التوقيت يقول إن الوقت المتاح لم يكن يكفى أبدا. كان عمره أربعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام، هل تكفى؟ لا أعتقد. تُرى! لماذا أبدأ حكايتى بكل هذه الفوازير والألغاز؟ لأزيد الأمر وضوحا؛ لى العذر فى الغموض واللف والدوران، خوفى ضخم من انصرافكم عن قراءة فصلى، خاصة وأن ما سأحكيه لن يتعدى مشهدا واحدا قصيرا، وللحقيقة فهو مشهد مقبض وحزين. وأنتم تعيشون زمن النصر والضحك السعيد والفرح بلا حدود فى بر مصر، أنتم أهل السعادة التى لم يرها الأجداد ولن يحظى بها الأحفاد، فهل تقبلون على حكايتى؟

إذن لأقدم لكم المشهد من أوله: أجلس الآن فى الصندوق الخلفى لعربة سوداء اللون وإن كانت تبدو رمادية من أثر الشمس وتأثيرها على اللون الأسود. مكتوب عليها من الخارج ـ على لوحة بلون رمال الصحراء ـ رقما تحته كلمة الجيش. أمامى صندوق خشبى بداخله مصرى. فى كابينة السيارة السائق وهو جندى، وبجواره مساعد مريض، وبينهما جندى جريح وجدناه على الطريق. خلفنا مدينة السويس، ونحن نتجه إلى القاهرة. والإرسالية متحركة بهدف تسليم جثمان مصرى، وإحضار إرسالية من الأدوية، من المستودع الرئيسى للخدمات الطبية. عيناى لا تريان سوى الصندوق الذى أحاول تثبيته حتى لا يتحرك مع رجرجات العربة. فى مواجهتى مباشرة نافذة صغيرة، أتابع منها المرئيات، وتعكس لى مدى سرعة العربة. أحاول معرفة علامات الطريق لأحسب كم بقى من الوقت حتى نصل إلى القاهرة. بجوارى راديو صغير تنبعث منه خروشة، وبين الحين والآخر يصلنى الإرسال واضحا. ثم لا تلبث أن تتوه الأحرف والكلمات حسب اتجاه العربة.

استشهد مصرى قبل ظهر الأمس. ما زلت أتصور أنه فى إغفاءة طويلة، وأنه لا يزال حيا، وأن دفئا ما ينبعث من جثمانه، ويصل إلى عبر الشقوق الموجودة فى الصندوق. عندما حملناه لكى نضعه فى الصندوق كان الجسد طريا، ولم يكن قد تيبس بعد، وخيل إلى أن الدم يجرى فى العروق وأن القلب ينبض. قلت:

ـ إن هموم الفترة الأخيرة أوصلته إلى حالة إغماء سرعان ما تنتهى.

حتى الآن، ومستقبلا، لن أصدق أن مصرى استشهد، رغم أن جثمانه بين يدى. أنا معذور فى هذا. للاستشهاد فى ميدان القتال رائحة خاصة، شممتها آلاف المرات فى الأيام الأخيرة، هذه الرائحة لا تصل إلىّ من

مصرى، ولا أعتقد أنها ستصل إلىّ فى يوم من الأيام، حتى لو بقيت معه هكذا شهورا طويلة.

كان الوقت ثقيلا يتحرك ببطء إلى درجة الملل. فكرت أن أكلم مصرى، أتأكد من حقيقة استشهاده، ولكن الصندوق كان مغلقا بشكل محكم. اقتربت منه، نظرت من بعض الشقوق، لم تكن هناك أية حركة. تذكرت الراديو الموضوع بجوارى. أمسكت به. عبثت فى أزراره. حاولت الاستماع إلى أى صوت، وعندما اعتدلت العربة على الطريق فى اتجاه جديد وصلنى صوته واضحا، وأتى صوت المذيع وقورا مهذبا متجهما:

ـ أذاعت رئاسة الجمهورية بيانا إلى الأمة، تعلن فيه موافقة مصر على قرار وقف إطلاق النار، الذى أصدره مجلس الأمن صباح أمس. وكان مجلس الأمن قد وافق فى اجتماعه الذى عقده مساء الأمس، بناء على دعوة عاجلة من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، لمواصلة بحث الموقف فى الشرق الأوسط.

استدارت العربة، وارتفع صوت موتورها. ضاع منى صوت المذيع. نظرت إلى الصندوق الخشبى. الصندوق لا يتحرك رغم اهتزاز العربة. قلت:

ـ ربما يحاول مصرى ـ مثلى ـ أن يلتقط ما يقال ويفهمه ويستوعبه.

إن ما قيل ليس صعبا على الفهم. ولكن من حق الكل ـ خاصة نحن ـ أن نفهمه ونتمثله كل بطريقته الخاصة. اهتز الصندوق من جديد. بدا لى أن مصرى فهم اللغز وبدأ فى حل طلاسمه. حركة الصندوق هذه المرة بدت أقرب إلى التململ أو محاولة التعبير عن عدم الرضا ـ لا أدرى ـ أو محاولة قول إيضاحات اللحظة ما بعد الأخيرة، حيث يكون الأوان قد فات. يبدو أن كل هذه خيالات رجل أصابه التعب والضنى قبل الأوان

بكثير. إن التعب لم يفارقنى حتى لحظة كتابتى. والناس يقولون إن التعب حالة تصيب الإنسان، وسرعان ما تنتهى بعد أن يستريح الإنسان قليلا من الوقت، ولكنى استرحت بعدها من كل شىء. أما التعب فلم يذهب.

لازمنى طويلا. القلب متعب ينتفض، يتكلم، يكتب لكم هذه الكلمات بنشوة متعبة. ما من حل أمامى سوى أن أكتب. أن يضيع الإنسان من حلقة إلى أخرى دون أن يدرى كيف يتم هذا؟! كل ما فى حياتى يبهت أمام السر الذى أحمله، لا شىء فى العمر كله يساويه. عبثا أبحث عن مقارنات. هل حدث فى الدنيا كلها مثل حكاية مصرى؟ لا أعتقد. من المفروض أن أركز كل ما أكتبه عن موضوع مصرى وما جرى له. الكتابة عن أى موضوع آخر خيانة لمصرى نفسه، إن هذا يوقعنا فى الخطأ الآخر القاتل؛ وهو فصل الأمور عن بعضها البعض. كل الأمور مرتبطة ببعضها، ومع هذا لن أتحدث سوى عن مصرى، وسترون أنتم مدى تداخل الأمور فى بعضها لدرجة يبدو الفصل خرافة مستحيلة التحقيق.

الحديث عن مصرى له نقطة بدء واحدة: ذلك اليوم البعيد، يوم أن تعرفت به، يوم حضوره إلى الوحدة. لن أنسى المرة الأولى التى سمعت فيها صوته، إن أول ما يصل الإنسان فى مثل هذه الحالات هو الصوت؛ ذلك الهواء الخارج من الفم والذى يتحول إلى صوت نسمعه جيدا. صوته كان خجولا، وكانت فيه حاجة، نداء إنسانى لا حد له، يطلب الخدمة، مد اليد إليه، التعارف. وصلنى صوته. أحسست بما فيه من احتياج إنسانى. نظرت إليه. فى العين شىء إنسانى يحترق.

أعتقد أننى جانبت أصول الذوق واللياقة التى تفرضها أصول الحديث؛ لى العذر. لم أجد من يقدمنى لكم. فليس لنا فى هذه الرواية مؤلف يتولى كل هذه الأمور نيابة عنا، لهذا على القيام بتلك المهمة بنفسى، أنا صديق

مصرى، جعلتنى الظروف ـ الحسنة أو السيئة ـ أقرب الناس إليه؛إنها الظروف التى تجعل مصائر الناس تتلامس وتتقارب وربما تتشابك دون تدخل منهم أبدا. إنى أسأل نفسى الآن:

ـ ما الذى جعلنى أقترب من مصرى بهذه الصورة؟ لماذا غمست نفسى فى مشكلته إلى هذا الحد؟ وبأى سبب أصبحت طرفا فى هذه الحكاية المحزنة؟ الإجابة أنى لست أدرى، على الأقل لا يوجد سبب واضح لذلك. ثمة أسباب متشابكة. فى اللقاء الأول: الوجه يصافح الوجه. المساء: ذلك المساء البعيد؛ وصلت إلى الوحدة دفعة جديدة من المجندين. كنت نوبتجى مكتب السرية، وكان علىّ أن أستقبلهم.

فى تلك اللقاءات الأولى، تقال كلمات معادة: الاسم، المؤهل، تاريخ التجنيد، تاريخ الحضور إلى الوحدة، البلد الأصلى، العمل الخارجى، العمل بعد التسريح من الخدمة العسكرية، نوع الواجب المدرب عليه للحرب. كانت الدفعة صغيرة، ثمانية من المجندين حضروا من مركز التدريب، أخذهم رقيب نوبتجى الوحدة إلى عنبر المجندين ليضع كل منهم مهماته. استراحوا قليلا. لم يكن لهم تعيين بالوحدة لأنهم حضروا بعد العاشرة صباحا؛ أى بعد إرسال يومية التعيين. استأذنوا فى الخروج قليلا لشراء طعام من بعض المحلات المحيطة بالوحدة، أعطاهم رقيب نوبتجى الوحدة إذنا بساعة واحدة، يحضرون بعدها. حضروا فى الموعد. وكان واضحا أنهم فى حالة استرخاء بعد عناء يوم الترحيل وهو من الأيام الصعبة فى حياة المجند. أحضرهم إلىّ الرقيب النوبتجى لأقوم بتسجيلهم حسب التعليمات المتبعة فى مثل هذه الحالات، وقفوا أمامى فى صف صغير، تقدم واحد منهم وبيده أوراق فيها بعض البيانات المطلوبة، بها: الرتب والأسماء وتاريخ الترحيل وشهادة آخر تعيين صرفوه من المركز قبل إرسالهم، وشهادة آخر صرفية مالية صرفت لهم، وبيان بالفرق التى

حصلوا عليها. منهم سبعة دربوا على حمل النقالات، وواحد فقط حصل على فرقة ممرض. وكان هو الذى أعطانى أوراق الجماعة. لفت نظرى فيه تواضعه، أو لنقل بلغة الميرى تراخيه العسكرى، وانعدام الضبط والربط لديه. لم يكن يعلق على كتفيه أشرطة، ولكن كان واضحا أنه حكمدار الجماعة، وإن كان ليس سعيدا لاستخدام هذا الحق فى معاملته لهم.

نظرت إليه، فكرت أن ألفت نظره إلى أنه لا يستحق أن يسند إليه أى عمل قيادى. لم تخرج الكلمات من بين شفتى، صدقنى طيبته هى التى منعتنى. نظرت إليه. فلاح، في عقد الأصابع واليدين ما يميزه. قرأت فى أعماق عينيه تعبيرا عن اضطراب نفسى. بدا لى كائنا ضعيفا يطلب المساعدة، وسرحانه كان يقول إن بداخله قدر من الأسى الذى تأخر الإعلان عن وجوده. وجه مصرى أسمر فى لون طمى النيل. وبدأت فى أخذ العناوين. وفضل حكمدارهم أن يكون هو الأخير. وهذا أيضا تصرف له غرابته، فالمفروض أن يقدم نفسه على الجميع. أتى دوره، وقفته أمامى تحولت إلى وقفة عسكرية متصلبة. لم أستطع نطق اسمه فى الخطاب أمامى لسوء الخط، فسألته:

ـ اسمك؟

ـ ....

لم يكمل اسم والده ولا عائلته ولم أطلب منه ما هو أكثر من هذا. سألته مرة أخرى عن الاسم، قال لى، وبياناته كانت كالتالى: حاصل على الإعدادية، من إحدى قرى الوجه البحرى. جند فى منطقة تجنيد الإسكندرية. وتم ترحيله إلى إدارة التجنيد بحلمية الزيتون، ووزع على سلاح الخدمات الطبية. وترحل إلى أساس الخدمات الطبية، ثم مركز التدريب، وأخيرا تقرر تعيينه بإحدى مستشفيات الجيش الموجودة بالقاهرة، حيث كنت

أخدم. لم يكن له عنوان فى القاهرة، أملى علىّ عنوان أهله فى قريته. وأما عن عمله قبل التجنيد فكان طالبا، وهنا نبت فى ذهنى أول تساؤل:

طالب ومجند، كيف هذا؟!

للحظة عابرة فكرت أن أسأله لماذا لم يستخدم حقه فى التأجيل؟ ولكن كثرة العمل شغلتنى عن توجيه السؤال. أكملت باقى البيانات بشكل عادي وعندما سألته عن أخوته، قال لى فى البداية إنه وحيد على خمس بنات. وضعت القلم. كدت أصيح فيه: إن القانون يعطيك حق الإعفاء، ولكنه قبل أن أفتح فمى، خبط جبهته بيده وقال لنفسه:

ـ آه كيف نسيت؟

قال إن له عددا كبيرا من الأخوة، هو أصغرهم. تلعثم وهو يحاول إيضاح الأمر فالأسرة كبيرة جدا، ومن الطبيعى أن يحدث خطأ وهو يحاول تذكرها، خاصة وأن هذه هى المرة الأولى التى يسأل فيها كل هذه الأسئلة الخاصة. أنا ابن مدينة، أنظر لكل ما يمت إلى الريف على أنه نوع من الفاكهة، وبدا لى ذلك المجند الفلاح القادم من قرية لا أعرف حتى مكانها، عالما من الأسرار والحكايات. ولفت نظرى أنه طالب ومجند، وأنه لا يذكر كل أخوته. قدم لى تفسيرا، قال إنه يدرس من المنازل، وبالتالى ليس من حقه الحصول على تأجيل لتجنيده. إيضاحه لم ينطل علىّ لأنه هو نفسه بدا لى غير مقتنع به. وأوحت لى كلماته وطريقة نطقه بها أن الحكاية وراءها حكايات أخرى، أصبحت بالنسبة لى جسرا إلى عالمه.

اقتنعنا معا أنه لا بد من المصارحة، بصورة أو بأخرى. إن للقلب أسبابه التى لا يعرفها العقل. وأنا كبشر من حقى أن أسكب حبى فى قلب صديق. لقد شعرت أن هذا الشاب يتعذب بتلك الرغبة الإنسانية الحادة فى البوح، فى البحث عن إنسان يأتمنه على سره الخاص. وما إن يدعنى كائن أقرأ ما فى

نفسه، مهما كان ما أقرأه قليلا، فإنى مستعد لأن أحبه. أدركت من خلال أكثر من واقعة أن له اسما آخر غير اسمه المدون به، وأن حياته لها بيانات أخرى غير البيانات المدونة فى أوراقه. بيان واحد كان يعرفه جيدا ألا وهو تاريخ الميلاد فقط.

فى الصباح، فى طابور التمام اليومى، ينادى الضابط النوبتجى الأسماء، كى يقدم يومية تمام عن القوة، على أن يكتب يوميات غياب لغير الموجودين. لاحظنا جميعا أنه عندما ينادى اسمه المدون فى أوراقنا، فإنه لا يرد. يتكرر النداء أكثر من مرة. يكاد الضابط أن يدونه ضمن الغائبين لولا تدخل زميل له. يذكره بأن الاسم الذى يناديه الضابط اسمه هو، يرد على الضابط الذى أنبه وطلب منه أن يكون يقظا ، وتساءل فى سخرية أقرب إلى التهكم:

ـ هل هناك من لا يعرف اسمه؟

طلب منه تنظيف أذنيه، فى الأيام التالية تكررت حكاية عدم سماعه. كنت الوحيد الذى توقف أمام هذه الحالة. فهو ليس غبيا. أعرف درجة ذكائه ويقظته وقدرته على السمع، وردود فعله السريعة والمباشرة كالخط المستقيم تجاه الواقع. بعد أسبوع طلب قائد السرية عرضه على الأطباء الذين قرروا أن أذنيه سليمتان وبحالة جيدة. مرت حكاية الأذن. ولكن علامات الاستفهام ظلت قائمة.

صدقونى، كنت أشعر أنه يحيا حياته بشكل بالغ الغرابة. عندما يخطو فى الطوابير فالخطوة ليست خطوته، عندما يتكلم فإنه يستحضر من فوق اللسان كلمات عليه أن يقولها، بصرف النظر عن مدى تعبيرها عنه. النظرة واللمحة والانفعال والعاطفة ودقة القلب، كل هذا كان يقوم به فقط. حقيقة لا أعرف كيف أعبر عن هذا الأمر.

كنا ذات مساء نتحدث. تكلم هو طويلا عن الذين يكملون عشاءهم نوما، والذين يعيشون على الكفاف، دهشت من حديثه عن هؤلاء الناس؛ فالثابت فى أوراق الوحدة أن عمل والده عمدة، والعمد من المعروف أنهم من أغنياء الناس. أبديت دهشتى من اهتمامه بالفقراء والمساكين. اندفع فى حمى الحديث:

ـ أنا واحد من . . .

لم يكمل الكلمة، والسؤال الذى انبثق من ملامح وجهى لم أقله. غطت ملامحه خطوط من العرق المفاجئ، رغم أيام الخريف الهادئة. لم أشأ التكرار. لم أحب أن أسأله: كيف يقول ـ وهو ابن العمدة ـ إنه واحد من الفقراء؟! ذات ليلة، كنا خدمة ليلية على الوحدة. كان من المفروض أن يسلمنى النوبتجية فى العاشرة مساء، وفى الرابعة من صباح اليوم التالى. فى المرة الأولى، جرى التسليم بشكل عادى. ولكن فى المرة الثانية كان يبدو منفعلا، بدا نصف يقظ ونصف نائم فى وقت واحد. بعد أن أخذت منه البندقية والذخيرة ـ الطلقات العشر كما هى ـ وتممت على النوبتجية.

قال وهو يتجه إلى عنبر الجنود:

ـ الليلة فقط أدركت ما كان يعانيه أبى طوال سنوات العمر الماضية.

ـ تقول أباك.

تداخلت الكلمات على لسانه، عجن فمه أحرف الكلمات المختلفة مع بعضها البعض:

ـ ما هو خفير.

بجهد غير عادى، كتمت انفعالى، جعلت الأمر يبدو وكأنه أحد الأمور العادية. أدركت أنى أمام حالة من النوع النادر. ما هى الحكاية

بالضبط؟ الأيام التالية، كانت أيام المخاض. تحاورنا كثيرا، درنا حول المعنى الأساسى. بدا لى أنه متعب من حمله لشىء فى ثقل الحديد وبرودة الرصاص. لم أشأ أن أفاتحه، أو أطلب منه حكاية شىء لى. قلت لنفسى:

ـ الناس أسرار.

من حقه الاحتفاظ بأسراره الخاصة. لا أذكر الآن اللحظة التى فجرت فى نفسه ينابيع الأسى. كانت لدى تعليمات دائمة لا بد من تنفيذها بالنسبة للمجندين الجدد. ولكننا كنا ننظر إليها على أنها شكل من الروتين ولم تكن تنفذ أبدا، وهى الخاصة بالأقراص المعدنية والإقرار الخاص بمن تصرف له المستحقات المالية والتكريم الأدبى فى حالة الاستشهاد.

فجأة، صدرت لنا تعليمات مشددة بأن نتأكد من توزيع الأقراص المعدنية على كل أفراد القوة. وبإرسال صورة من إقرارات الاستشهاد، كما كنا نسميها، بعد ملئها واعتمادها بمعرفة الوحدة. اللحظة التى تسلم فيها مصرى القرص المعدنى كانت خاطفة، تأمله بين يديه. سأل عن أهمية القرص المعدنى، قال له الضابط إن القرص من المعدن محفور عليه الاسم والرقم العسكرى وفصيلة الدم. يعلق فى الرقبة بواسطة سلسلة من المعدن، وهو الشىء الوحيد الذى يبقى سليما ونهتدى منه إلى شخصية المقاتل مهما حدث له فى ميدان القتال، حتى لو تحول كيانه الإنسانى إلى فحمة. فلا بد وأن يبقى هذا القرص، كشاهد إثبات أزلى وحيد، يقول إنه كان يلتف حول عنق بطل من الأبطال. أعطيناه الإقرار، تقول صيغته:

ـ إن الموقع عليه أدناه، يقر ويعترف، بل ويطلب من القوات المسلحة فى حالة استشهاده، أن تصرف جميع مستحقاته المالية إلى. . .

ثم يحدد اسم من تصرف له، ودرجة القرابة، والعنوان، مع تحديد أقرب مكتب بريد يتم الصرف عليه. وبعد التوقيع، توجد خانة لاعتماد قائد الوحدة:

ـ تشهد الوحدة بأن المقاتل المذكور وقع الإقرار بنفسه.

ويختم الإقرار. ويصبح وثيقة تضم إلى ملف خدمة المقاتل. وفى حالة الاستشهاد، يبقى الإقرار هو الوثيقة الوحيدة المعتمدة فى الصرف وفى كافة المعاملات الأخرى. ويذكر الجميع أنه رفض كتابة الإقرار، كان رفضه غريبا! ترك اسم المستفيد ودرجة قرابته له على بياض، وفى آخر الإقرار كتب اسمه ووقعه. سأله الضابط عن السبب. رفض شرح الأمر له، قال:

ـ إذن اكتب درجة القرابة فقط: أمى، أبى، أختى، مثلا.

حتى هذا الحل لم يوافق عليه، وبعد يومين، قرر أن يكتب كلمتين فقط، لم يزد عليهما حرفا واحدا:

ـ الورثة الشرعيين.

هذا هو كل ما كتبه فى الإقرار. ورغم أنه كان مطلوبا منا التحديد القاطع فى الإقرار، إلا أنه قال إن ما كتبه يكفى وهو أحسن الحلول. فسر الجميع الأمر بأنه نتيجة خلافات عائلية يومية، وتصوروا أنه سيحضر إليهم قريبا ليحدد المستفيد بالاسم.

فى اليوم الذى سلم الضابط الإقرار فيه كان الكيل قد طفح به كما يقولون فى القصص. حضر إلىّ وقت الظهر، قال إنه يريدنى فى أمر هام. اتفقنا على أن نجلس معا فى الليل. بعد طابور الهتاف للعلم والبلاد. ولكنه تهرب منى بعد الطابور. بحثت عنه، لم أجده. وصل إلى مداه الأخير.

فى الليلة التالية تقابلنا صدفة، سألنى عن إقرارات الاستشهاد، هل أرسلت إلى إدارة السجلات العسكرية أم لا؟ قلت له إننى لا أعرف. سؤاله الثانى بدا لى غريبا:

ـ هل من حق أحد أن يعدل صيغة إقراره؟

لم أكن أعرف مثل هذه الأمور وخاصة وأننا كنا ننظر إلى هذا الإقرار على أنه نوع من الإجراء الروتينى الصرف الذى لا يقدم ولا يؤخر. قلت له بنوع من الاجتهاد الشخصى:

ـ أعتقد أن تغيير الإقرار يتطلب إلغاء الإقرار المطلوب تغييره، وكتابة إقرار جديد ، واعتماده بنفس الطريقة التى عمل بها الإقرار الأول. المسألة ليست سهلة.

خلال حديثى كنت مشغولا بالحديث فقط. فاتتنى ملاحظته، ولكنى فى الوقت الذى كنت أشرح فيه هذه الإجراءات الطويلة والمعقدة كان هو يبحث عن شىء ما فى جيبه، يبدو أنه خبأه بكل عناية. بلغت درجة العناية أنه وضعه داخل الورقتين اللتين يتكون منهما كرنيه تحقيق الشخصية الخاص بالقوات المسلحة، ثم أعاد لصق الورقتين اللتين تكونان وجهى تحقيق الشخصية ووضعهما داخل الباغة الحافظة لهما من التلف. أخرج الورقة التى كانت مطبقة على شكل مربع صغير، بنفس حجم تحقيق الشخصية، فردها بعناية. كانت عيناه وملامح وجهه وقلبه ينبض مع الورقة. فتحها بهدوء وببطء وبعناية. وضعها فوق المنضدة التى تتوسطنا فى جلستنا. أدار الورقة. وضعها تحت ناظرى. رفع يده عنها. لم أكن أدرى شيئا عن هذه المفاجأة الغريبة. نظرت إليه مستفهما، أشار بعينيه إلى الورقة، وطلب منى قراءة ما فيها أولا، واشترط علىّ أنه لن يجيب على أية أسئلة. الورقة لم تكن أصلا، كانت صورة عن الأصل فى أولها كلمة: وزارة التربية والتعليم، تحتها مباشرة: إدارة الامتحانات وعنوانها بالقاهرة. البيانات التالية شهادة بأن صاحبها حصل على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية، ثم مجموع الدرجات الحاصل عليها. نسبة الدرجات تفيد تقدمه، وترتيبه متقدم جدا فى كل المواد، ودرجاته تصل إلى أكثر من تسعين فى المائة. وبينما أنا مستغرق

فى التفكير، ضربنى فوق يدى. انتبهت له. فى صمت مد أصبعه التى كانت تقول إن صاحبها فلاح، أشار إلى اسم حامل الشهادة. قرأته:

ـ مصرى.

امتدت أصبعه وأشارت لصورة صاحب الشهادة. وكانت صورة الجالس أمامى بنفسه. أعترف بأنى لم ألاحظ هذا. عند النظرة الأولى لم أفهم الحكاية. تصورت أن هناك تشابها فى الأسماء أو ملامح الوجوه، أو أن الجالس أمامى له أكثر من اسم، واحد للشهرة والآخر رسمى، وأنه يريد تصحيح الاسم والحصول على شهادة بأن كلا من الاسمين لشخص واحد. يوقعها اثنان من الضباط العاملين بالوحدة ويعتمدها من أركان حرب الوحدة، وترسل إلى السجلات العسكرية. قطع علىّ رحلتى مع الإجراءات التى تصورت أنه يحتاجها بحكم وجودى فى مكتب الإدارة. كلمته الوحيدة أيقظتنى تماما:

ـ أنا.

نطقها وأشار للصورة المثبتة على الشهادة. صورة لطالب من الأرياف. الشارب خط نابت والذقن الخفيف محلوق حتى قبل أن ينبت، وشعر الرأس به شعيرات هنا وهناك فى غير انتظام، وربطة العنق التى يرتديها تبدو مكرمشة من كثرة الاستعمال، إنها هى الكرافتة التى يعطيها صاحب الاستديو لكل طالب يذهب إليه ليصوره صورة لاستمارة الامتحان، والطالب يقبل ربطة العنق هذه تفاؤلا. أما الچاكيت والقميص فهما يخصان طالبا غنيا وليكن ابن عمدة، وهو يقوم بإعارتهما للكل، حتى يتصور بهما، إنهما يقومان بدور الديكور لكل المتقدمين، فهو ابن عمدة.

حرك أصبعه ببطء. ضاغطا على الورقة لدرجة أنى تصورت أن أصابعه ستمحو الكلمات من فوق الورق. خفت أن تتمزق تحت ضغط

يديه. وصل أصبعه إلى اسم الطالب، كان ظفره بمحاذاة حرف الميم، الذى تبدأ به كلمة مصرى. قال ببطء وهو يرفع عينيه نحوى:

ـ وهذا اسمى أنا.

من جديد أقول: لم أفهم. بدت المسألة صعبة على الفهم. تهت، تضاحكت فى محاولة لتخفيف حدة الموقف الصعب. رفعت يدى فى المسافة الصغيرة التى تفصلنا. كنا نجلس فى مقهى صغير، خلف الوحدة وكان الوقت ليلا. تساءلت:

ـ ما هى الحكاية بالضبط؟

نظر بعيدا، انعكست على عينيه مرئيات أول الليل فى شارع شعبى:

ـ الحكاية. . الحكاية. . الحكاية. . هوووه.

أذكر أنه بعد المرة الرابعة التى ردد فيها كلمة الحكاية، خرجت الكلمات من فمه، وتشابكت جميع تفاصيل ذلك اليوم فى ذاكرته، اليوم الذى فاتحه والده فيه بالأمر. أثناء الكلام بدا لى سعيدا. كان يروى عطشه من ذلك النبع المسكر، نبع الحكايات التى يحكيها. بدأ يفك طلاسم وجهه المعقدة، الطلسم بعد الآخر، وارتاحت الأشياء فى ذاكرته لأول مرة. من قبل، كان نادرا ما يتكلم، الآن أسكره صوته، فاسترخى القلب. كان يحكى، وعندما توغل الليل، شعرت أن هناك شيئا ما يثب بداخله، اتسعت حدقتا العين، وانزلقت منهما على الحياة نظرة جديدة، وتحدث عن: دورة الليل والنهار، عدم القدرة على إكمال تعليمه، التوقف فى منتصف الطريق، مصمصات الناس أثناء سيره فى حوارى البلد.

وصل إلى النقطة الرهيبة، يوم فاتحه والده. كان ما سمعته مهولا، والغريب أنى لم أتوقعه أبدا. من الممكن توقع أى شىء إلا ما قاله لى

مصرى، وتلك هى المرة الأولى التى أنطق فيها باسمه، وإن كان ذلك صعبا فى البداية. فقد ارتبط شكله فى الذهن بالاسم الذى عرفته به، منذ أن حضر إلى الوحدة. بعد سماع الحكاية المؤلمة، كانت لى تساؤلات كثيرة، فكرت فى تأجيلها إلى الجلسة القادمة، ولكن الأمر بدا كالعلقم، أو أمر منه. قلت: فلتفرغ من الأمر كله الآن، السؤال الذى كان يضرب فى رأسى مثل خبطات الحجر قلته:

ـ ولم قبلت هذا؟

وبهدوء أجابنى:

ـ لم يكن أمامى سبيل آخر.

لم تقنعنى إجابته أبدا، تصورت أنه يبرر لنفسه قبل أن يبرر لى فعلا يبدو غير مقتنع به، ولأنه ما زال يخوض معركة الإقناع الخاصة به، انطلق فى حديث طويل. قال مصرى إنه يرجونى أن لا أتصور أنه قبض ثمنا ضخما لفعلته هذه، وهو لا يفكر فى حكاية الثمن، لسبب بسيط؛ إن الطريق كان قد سد فى وجهه ووجه عائلته أيضا:

ـ اتضح لى أننا سنسلم الأرض للعمدة برغبتنا أو رغما عنا، ذهبنا إلى المسئولين، قلنا:

ـ كيف نعيش لو أخذ العمدة الأرض؟

قالوا إن هذه ليست المسألة. سلموا الأرض أولا وأمامكم القضاء، فى ساحة المحاكم متسع للجميع، والكل يعيش الآن فى أزهى عصور العدل التى عاشتها مصر. كان ذلك تضليلا؛ فالحالة ليست جنائية بقدر ما هى سياسية. عند مواجهة الموقف تفرقنا، قرر البعض تسليم الأرض والذهاب إلى القضاء، والبعض الآخر أعلن أنه لن يسلم أرضه إلا بعد أن

يرويها بدمه، وسيصطدم حتى بالحكومة، والبعض الثالث ساومه العمدة. وكان أبى من النوع الأخير. أتت حكاية التجنيد وقال العمدة لأبى ابنك مقابل بقاء الأرض معكم. قبل الوالد وفرح البيت كله بهذا الحل، أما أنا فقد رفضت الأمر كله بدون مناقشة. كلمة مناقشة قد تبدو غريبة وبعيدة عن حياة الناس فى بلدنا. قالت لى نظرات أهلى إن رفضى سببه أنه مطلوب منى القيام بالتضحية. ولماذا أسميها تضحية؟ كان المطلوب حلا. تصورت أن الرحيل عن البلد هو الحل. من يدرى؟ ربما وجدت مستقبلى هناك.

صدقنى قبلها كنت أفكر فى التطوع فى القوات المسلحة، وقمت بقطع أحد الإعلانات التى تطلب متطوعين من جريدة اشتراها أحد الزملاء، وكانت المزايا كثيرة. قبلت. ومن يومها، لا أعرف حتى كيف أعيش، أو كيف ذهبت إلى الإسكندرية. وتم ترحيلى إلى حلمية الزيتون وأكملت الرحلة، حتى وصلت إلى الوحدة الأساسية.

قبل الاستطراد فى الحكاية. هناك أمور لا بد من الكلام فيها، وتسجيلها فى أوراقى، المسألة بالتحديد هى تفكير مصرى، كيف كان يفهم العلم، لم يكن كثير الكلام، ومهما تحدث فالكلمات كانت تتأرجح بين تصميمه على أخذ الثأر، هكذا كان يقول، أو التردى فى هوة اليأس. مصرى ضاع. لم يسمع أحد منكم هاتين الكلمتين من مصرى أبدا، أنا سمعتهما منه. ولن يشعر أحد أبدا بلسعة النار التى كانت تشتعل من مخارج أحرف الكلمات. هذه النار التى لفحتنى كثيرا، ستظل إحساسا يخصنى وحدى، طالما أنى عاجز عن نقله إليكم.

لحظتها تصورت أنى مسئول بصورة أو بأخرى عما جرى لمصرى. مصرى كان شابا ينضح بأشواق. فيه الكثير من تناقضات بلدنا: حب الدنيا والزهد فيها، الجرأة والخجل، الخوف والشجاعة، الواجهة المسالمة

والباطن المتفجر بالثورة والتمرد. تعبت نفسى طويلا فى البحث عن كلمة أصفه بها وأستريح. ها قد وجدتها: مرتاب. متشكك. مراهق. كان سيظل هكذا حتى ولو عاش حتى التسعين من العمر. أنا لا أستعمل هذه الكلمة بمعنى الجرى وراء البنات. أؤكد أنه لم يعرف هذه الأشياء طوال عمره القصير. بعد أن حكى لى مأساته سألت نفسى:

ـ هل كان سيسعد لو عرف ذلك الشىء الذى يتحدثون عنه أربعا وعشرين ساعة كل يوم والذى يسمونه الحب؟

لا أعرف. المراهقة عند مصرى كانت آتية من ارتيابه وشكه. أخذ الدنيا بشكل عفوى. وعندما اصطدم بالواقع، انتفى اليقين لديه فى عالمنا كله. هل كان هذا سبب ما حدث له؟ لا أستطيع الإجابة لسبب بسيط هو أننى لم أكن أعرف مصرى قبل التجنيد. كل ما أقوله يدخل فى باب اجتهادى الشخصى. مصرى كان حظه سيئا. لكل جيل قدره، وقدر جيلنا نحن أبناء مصر كان. . هل أكمل؟! كان الطموح أكبر من الإمكانية. وضعنا الأقدام فلم نجد تحتها أرضا. ورفعنا الرءوس لنلامس السحاب فاختفت السماء من فوقنا. وفى اللحظة التى وضعنا فيها أيدينا على حقيقة جيلنا تخلى عنا الزعيم باستشهاده فى الوقت الذى ازداد فيه احتياجنا له.

الكلمات السابقة، كتبت بمنطق التداعى وليس بقصد منى، لو كان هناك وقت للتفكير قبل الكتابة، كان من الممكن أن لا أكتب هذه الكلمات. أكتب وأنا أعانى من حالة اضطراب. مجرد تذكر مصرى وحكايته يسبب لى رعشة. لن أشطب كلمة سوء الحظ والقدر لأنهما كتبتا وانتهى الأمر.

لنعد إلى مصرى: حياته كانت فصولا متصلة ومستمرة من العذاب الذى لا نهاية له، ومع هذا لن أعلق ما حدث على كلمات القضاء والقدر والحظ المكتوب على الجبين الذى لا بد وأن تراه العين. المسألة أكبر

من هذا. عندما ذهبت إلى بلدته، وجدت الإجابة فى المسافة من بين قصر العمدة الأبيض الضخم والذى يبدو لامعا حتى فى الليل، والعشة التى يعيش فيها أهل مصرى، والتى تسمى تجاوزا بيتا. والفارق بين جثة العمدة التى كانت فى ضخامة الفيل، وجلد والد مصرى المشدود على العظام، لدرجة أن العظام تبدو وكأنها ستخرج من تحت الجلد بين لحظة وأخرى. يبدو أننى ألف وأدور حول معنى لا يمكن المرور عليه بسرعة وهو: لماذا ذهب مصرى إلى الحرب؟ هل كان يبحث عن ميتة مشرفة؟ كانت أمامه آلاف الفرص ابتداء من الدفاع عن أرض أبيه التى ساوم عليها. لا أحب التعرض لمسألة الوطن والوطنية. كلنا نحب مصر. كل منا يحبها بطريقته الخاصة. ولكن أى مصر هذه التى نحبها؟! مصر الذين يموتون من الجوع، أم مصر الذين يموتون من التخمة؟ اغتصبت من مصرى حق الكلام. قلت إنى سأوضح أمرا، وتحول الإيضاح إلى ثرثرة، الآن يواصل مصرى كلامه:

ـ جُندت بدلا من ابن العمدة حفاظا على أهلى، هم الذين طلبوا هذا، وذهبت. الغريب أن الثمن لم يدفع لهم حتى الآن. لقد تنازلنا وطريق التنازل تعرف بدايته فقط، وليست له نهاية أبدا. سافرت إلى البلد فى إحدى الإجازات. قلت لكل من قابلنى إننى بعد أن اكتشفت صعوبة بل واستحالة إكمال تعليمى، قررت التطوع فى القوات المسلحة. قالوا إن هذا حل واقعى ومشرف، خاصة وأنه من الممكن أن أنتظم فى مدارس القوات المسلحة المسائية، وبمجرد حصولى على الثانوية العامة أدخل الجامعة أو إحدى الكليات العسكرية. وبعد التخرج يصبح باب الترقى مفتوحا أمامى إلى ما لا نهاية. فى البلد عرفت أن العمدة بعد ذهابى إلى الجيش ماطل ولم يعط والدى الأرض. أخذ الأرض منه أولا بحكم القانون الجديد، ثم سلمه قطعة منها زرعها بنظام المزارعة أو المشاركة ، ورفض حتى كتابة ورقة

بهذا الوضع الظالم على طول الخط. غضبت من تصرف العمدة، فكرت فى الذهاب إليه، منعنى والدى، قال لى إن المشكلة ستحل بصورة أو بأخرى، وتدخلى قد يعقد الأمور. لم أقتنع بكلام والدى، صممت على الذهاب إلى العمدة. ولكنه كان مسافرا، وما أكثر سفره فى تلك الأيام. انتهت أجازتى وحضرت إلى الوحدة.

ـ لا بد من حل.

قالها مصرى بحسم. سألته عن الحل الذى يراه:

ـ الضغط على العمدة حتى يفى بوعده مثلا؟ أم ماذا؟

رفض ذلك بشدة. قال إنه لا يستطيع رفع عينيه فى أحد الأهالى لعدم اشتراك أبيه مع الآخرين فى الوقوف ضد العمدة، وتخليه عنهم. صحيح أن الآخرين لم يصلوا إلى شىء. وكان أكبر خطأ وقعوا فيه هو تسليم الأرض واللجوء إلى القضاء، وبذلك أضاعوا البعد السياسى للقضية، وحولوها إلى واحدة من آلاف النزاعات المنظورة أمام المحاكم منذ سنوات. يكمل مصرى:

ـ إنه رغم خجله من موقف والده إلا أن التكفير عنه لن يكون سوى بموقف واحد لا بديل له، وهو كشف العملية كلها. دهشت، تساءلت:

ـ كيف؟

قال بهدوء:

ـ أطلب العرض على سيادة القائد، وعندما أدخل مكتبه أحكى له الحكاية من أولها إلى آخرها.

أوضحت له:

ـ ولكنك مشترك فى الخطأ وستحاسب.

قال لى:

ـ بغير هذا لن أستريح.

سألته:

ـ ومستقبل الأسرة؟

قال بعزم وتصميم:

ـ هل سمعت عن أحد مات من الجوع. سنبدأ من الصفر، وسأكون مسئولا عنهم من الآن وحتى لحظة وفاتى.

قلت له:

ـ ألا تخاف العمدة وسلطانه فى البلد؟

مرت فترة قصيرة قبل أن يجيب:

ـ الخوف أو الحرص طعام سام.

كان ساهما وهو يكمل:

ـ لن أخاف أحدا بعد الآن.

استغرق الحديث وقتا طويلا. شعرت أن مصرى يريد أن يعتذر لى عن الوقت الطويل الذى أضعناه. نظر فى ساعته، كنا قد تجاوزنا منتصف الليل بقليل. ذكرته أننا فى شهر رمضان، وإننى أفضل أن نظل ساهرين حتى موعد طابور السحور بدلا من النوم قليلا، فهذا يفسد السحور ويجعل النوم بعده مسألة صعبة. اتهمنى بأنى أجامله بكلامى. أقسمت له أننى كنت سأسهر سواء تكلمنا أم لا؛ فالسهر حتى السحور عادة رمضانية قديمة عندنا نحن أبناء المدن.

أصارحكم، لقد سعدت بكلام مصرى، ها هى أسئلتى الكثيرة تجد الإجابة عليها. سعدت باللحظة التى اتخذ فيها قراره بكشف المسألة كلها. أثناء الحكاية، وعندما وصل إلى اللحظة التى قبل فيها عرض العمدة، شعرت أنى خسرت رجلا أحببته بالفعل. ولكنه عندما حرك شفتيه ليقول إنه لن يخاف أبدا، أدركت أننى استعدته، وقررت الوقوف بجواره حتى النهاية.

أخرجنى من أفكارى بقوله:

ـ تصور الوضع لو توفيت، هل تعرف الظروف التى ستواجهها عائلتى، ومن الذى سيستفيد من الوفاة؟

قلت له:

ـ دعنا من هذه التصورات عن الغد، واحتمالات الأيام القادمة، تكفينا اللحظة التى نجلس فيها معا. ودعنى آخذ يدك لأضعها على حقيقتك التى اكتشفتها الليلة. لا أعرف، هل أهنئك، أم أقول لك إن عثورك على حقيقة نفسك يعنى بداية المشاكل ولا بد من الاستعداد لها.

قال:

ـ لا تهمنى المشاكل وأنا مستعد للتغلب عليها.

طلب منى أن أوجه إليه التهنئة. إن ما حدث الليلة هام. لقد عاد إليه مصرى القديم مرة أخرى، بعد غربة لم تطل كثيرا، ولن يتوانى عن استثمار اكتشاف الليلة.

ضحكت وقلت له:

ـ مبروك يا. .

لم أكن متعودا على مناداته باسمه الجديد، أقصد اسمه الحقيقى، أكمل هو:

ـ قلها، مبروك يا مصرى.

اتفقنا على البدء من صباح الغد، أن يطلب فى طابور التمام الصباحى من الضابط النوبتجى رسميا عرضه على القائد، وأن يتأكد أن هذا الطلب أدرج فى دفتر أحوال المستشفى.

فى طابور الصباح، رفع مصرى يده. قال إنه يطلب العرض على القائد. سأله الضابط النوبتجى عن الأمر، قال إنها قضية خاصة ولا يمكن عرضها فى الطابور العام. ألح الضابط. مصرى مصمم على ألا يقول أكثر من هذا. وعده الضابط بوضع طلبه فى دفتر الأحوال الذى يعرض على القائد بمجرد حضوره.

بعد الطابور لم يستطع مصرى عمل أى شىء، كان مرتبكا. فكرت فى الخروج معه والجلوس فى المقهى، ولكننا كنا فى رمضان ونحن صائمان. أخذته معى حتى أنهى بعض أعمالى. شعرت أن أعماقه ترتجف من الموقف الذى سيواجهه. الساعة العاشرة، موعد عرض المكاتب على القائد هو الثانية عشرة. قلت له: الباقى ساعتان. بعد قليل عرفنا أن القائد خارج الوحدة، استدعى إلى اجتماع عاجل فى قيادة المنطقة العسكرية المركزية. سيذهب بعده إلى إدارة الخدمات الطبية، ولا يعرف أحد إن كان سيعود إلى الوحدة بعد هذه المهام أم سيذهب إلى منزله. لا أستطيع وصف مدى التشاؤم الذى اعترى مصرى بمجرد علمه بهذا. عجبت من غضبه وعصبيته. قلت له إن اليوم لن يؤثر كثيرا. الأمر لا يستحق كل هذا التوتر.

اليوم هو الأربعاء، غدا الخميس، وإن لم يحضر القائد فيوم السبت ليس بعيدا. كور مصرى قبضته وخبط بها المكتب. حاولت تهدئته، ولكن ذلك كان مستحيلا.

آخر اليوم تأكد لى أن لدى مصرى قوة فريدة على الإحساس بالغد،

فالذى حدث أنه عندما أتت الساعة الثانية بعد الظهر ولم يحضر القائد، قلت إن الأمر سيؤجل إلى الغد، ولكن حوالى السادسة مساء فوجئنا بحضور كل ضباط الوحدة تقريبا والقائد نفسه كان فى مقدمة الذين حضروا، سرت حكاية غير عادية فى الوحدة. قال الكل إن شيئا غير عادى سيحدث بسبب حضور الضباط والقائد فى هذا الوقت.

على الفور عقدت اجتماعات مطولة بين القائد ومساعديه، وأركان حرب المستشفى ورئيس الشئون الإدارية والفنية، وقائد السرية. سريعا تسرب إلينا الخبر. أعلنت حالة الطوارئ، ولا بد من تواجد القوة داخل المعسكر بنسبة مائة فى المائة مع استدعاء الإجازات ووقف منح أية تصاريح للأفراد مهما كانت الأعذار. بعضنا لم يفاجأ بالقرارات لأن بعض أفراد الاحتياط استدعوا البارحة. المفروض أن يحضروا أحيانا للتدريب، ولكنهم فى هذه المرة ومع بداية أكتوبر حضروا ومعهم مهماتهم، وإن كانت حكايتهم لم تلفت نظر أحد. ثم توالت الإشارات تحدد بعض التخصصات للترحيل للجبهة فورا.

طلب القائد إنهاء كل الأعمال المؤجلة لنتفرغ كلنا لمواجهة الوضع الجديد، وطلب مصرى للعرض عليه إذ لا أحد يعرف شكل الغد. عندما كان مصرى يرتدى ملابسه العسكرية للتوجه إلى مكتب القائد لم يكن مهتما بالموضوع. لم يستغرق العرض سوى دقائق معدودة. خرج مصرى بعدها سعيدا. لم يقل لى ما حدث ولكنه اتجه فورا إلى عنبر نوم الجنود وبدأ يعد مهماته. لم يرد على أسئلتى، كان يتحرك بسرعة. اضطررت لأن أوقفه بالقوة لكى يقول لى ما حدث فى مكتب القائد.

قال لى ببساطة:

ـ مسافر إلى الجبهة.

ـ ماذا حدث بالضبط؟

ـ لا شيء، بدلا من تقديم شكواى، طلبت من القائد ترحيلى إلى الجبهة بأسرع ما يمكن وبأى صورة.

ـ والمشكلة؟!

ـ خجلت من الكلام فى مشكلة ومصر على أبواب حرب التحرير.

ـ ومن أدراك بحكاية الحرب؟

ـ إحساس خاص.

ـ الطوارئ أعلنت من قبل أكثر من مرة ولم تقم الحرب.

ـ هذه المرة لها رائحة خاصة.

صرخت فيه:

ـ ولكن مشكلتك؟

قال لى:

ـ كل المشاكل والقضايا من الممكن أن تنتظر أياما وشهورا وأعواما، ولكن تحرير الأرض لم يعد ينتظر أكثر من هذا.

أكمل بعد قليل: ـ وبعد إتمام الجزء الأول من قضية التحرير، وعند العودة تسوى المشاكل الداخلية وهى الجزء الثانى من حرب التحرير. اطمئن.

سألته:

ـ وهل أعطيت القائد فكرة عن حكايتك؟

ـ ليس هذا وقته.

قلت له:

ـ إن كنت قد خجلت من الكلام فى هذا الجو فأنا مستعد أن أتكلم نيابة عنك.

رفض، قال إنه فى الظروف العادية هناك ألف فارق بينه وبين ابن العمدة، الآن أصبح الكل واحدا. فوارق الاسم والرسم والملامح لم يعد لها أية قيمة الآن، لا بد وأن ينال شرف تحرير مصر. ليس مهما بأى اسم ولا بأى صفة ولكنها فرصة. هذا الكلام ذاته قاله للقائد من خلال كلمات أخرى. قال للقائد إن سفره إلى الجبهة سيمنحه الراحة الوحيدة التى يبحث عنها، لكى يستعيد احترامه المفقود لنفسه. كلماته تدفعنى إلى تساؤل: هل الاستشهاد هو ما كان مصرى يبحث عنه؟ وترى بأى الصفات سافر إلى جبهة القتال؟ هل سافر محتجا؟ أم شهيدا جاهزا استشهد فى معركة الداخل قبل أن يواجه عدونا كله؟ حيرتى شديدة.

وأنا أكتب، ينتشر بداخلى دم إنسان آخر أصبح قريبا منى. أحمله على كتفى. مصرى ضاع. قالها هو أكثر من مرة. وماذا يمكننى فعله من أجله سوى البكاء بين يدى ذكراه والحديث عنه. وما قيمة هذا؟! من يموت يقطع بنفسه فقط. ويبقى حتى أقرب الناس إليه يجرون حياتهم جرا. ما ذنبه هو؟ وما ذنبى أنا؟ حكايته أكدت لى معنى واحدا: إنه لا يوجد عدل فى عالمنا، وأننا إن قررنا احترام إنسانيتنا لا بد وأن نطالب الله بالعدل، وإن رفض مطلبنا هذا لا بد من البحث عن رب غيره. والعدل له معنى واحد:

ـ أن يعطى القوة والقدرة لمن له حق وعاجز عن تحقيقه. أرجوكم.

لا أحب أن يسألنى أحد منكم: وأنت ماذا فعلت من أجل مصرى؟ ولماذا تعلق الحكاية على حافة السماء، وتحيطها بضباب الغيبيات والأساطير بهذه الصورة؟ وأين إيمانك بقدرة الإنسان على خلق مصيره وتوجيهه؟

لنعد إلى مصرى، كان إصراره على السفر إلى الجبهة غريبا. حاولت الكلام معه، كان منصرفا عنى للاستعداد. تلك مسألة لن أفهمها. الإشارات التى وردت لنا كانت تطلب بعض التخصصات ولم يكن تخصصه من بينها؛ فلكل مجند منا تخصصه، نقول عنه فى لغة العسكريين، الواجب المدرب عليه للحرب. كان مطلوبا بعض حملة النقالات وأخصائى أشعة، وأخصائى معمل، وبعض العاملين فى المطابخ الميدانية المتنقلة. وكان واجب مصرى المدرب عليه للحرب ممرضا. لم يكن مطلوبا ومع هذا أصر على الترحيل، لم أصادف فى حياتى شابا مثله. البعض منا تهرب من الترحيل، وأقرباء علية القوم وأصهار كبار الضباط، ومن تدق تليفونات كبار المسئولين تطلب إعطاءهم إجازات بين الحين والآخر. هؤلاء، دقت التليفونات فى الوحدة، وتكلم أقرباؤهم بأصوات ناعمة، لم تعرف طعم المعاناة، يرجون أن لا يتم ترحيل أقربائهم إلى الجبهة لأنهم جنود. وماذا سيفعل جندى فى القناة الآن، ثم إن للجندى من أبناء الذوات مصالح، هذا له مشروع تجارى يفيد البلد، وذاك يعول أسرة، وثالث والده خارج البلاد فى مهمة وظيفية، وماذا سيقدم جندى أو يؤخر؟

مصرى كان فريدا. خيل إلىّ فى اندفاعه إلى القناة، أنه سيجد هناك الحل. أو سيتطهر فى مياه صبر السنوات الطوال. اقترب منى، كان يريد الحديث معى. فجأة، انفعل وبدت كلماته مشبعة بعاطفة لم أحسها فى كلامه السابق. قال لى إن السبب الأساسى فى قبوله التجنيد بدلا من ابن العمدة ورفضه إثارة المشكلة اليوم، أن ما يقوم به ليس سرقة ولا تهريبا وإنما هو أداء واجب وطنى لمصر. فهو يحب مصر إلى درجة العشق، ولا يسعده فى

حياته الخالية من أية سعادة إلا اسمه. وإن كان لا يعرف هل سماه والده لأنه ربط اسمه بأحب بلاد اللـه إلى نفسه؟ كانت المرة الوحيدة التى انفعل فيها مصرى واحمر وجهه وغطته حبات العرق.

خلال استعداداته، كان ينبت بداخله إنسان جديد. قبل الرحيل تنبه عليه إن كانت هناك أية تغييرات فى بيانات إقرار الاستشهاد فعليه أن يثبتها قبل ترحيله. قال إنه ليست لديه أية تغييرات. أخذنى بعيدا ، قال لى إننى الوحيد الذى أعرف سره، وإن لم يعد فأنا المسئول عن تصحيح الأمور. وأكمل بأنه ظلم فى حياته ولا يحب أن يلاحقه الظلم إلى هناك.

ولما كنت أود الإدلاء بشهادتى فى هذه القضية، فليس من صالح أحد أن أجركم معى إلى بعض المواقف العاطفية، ليس الهدف مما أقوله أن أجعل عيونكم تمتلئ بالدموع الدافئة على مصرى، بقدر ما هو أن نفكر معا فيما حدث بعقولنا. لن أصف وداعى لمصرى عندما أتت لحظة السفر، ولا معنى الرحيل فى انتصاف الليل فى وقت خريفى شاحب، ولا حتى الكلمات الأخيرة التى تقال فى مثل هذه المواقف.

فى اليوم التالى، وردت إشارة إلى الوحدة، لترحيل بعض الأفراد، وطلبت السفر مع الإرسالية. كنت أرغب أن أكون بجوار مصرى. كان اللقاء مؤثرا، تحول الشاب الذى يحمل تلك الحكايات على كتفيه إلى مقاتل ميدانى يثير الإعجاب. ورغم أنه سبقنى فى الحضور إلى هنا بيوم واحد، إلا أنه بدا لى وكأنه هنا منذ سنوات مضت. أخذنى من يدى، طاف بى فى كل مكان بالمعسكر. حبه للمكان أكد لى أنه يتعامل معه على أنه بيت أهله. وفى اللحظات القليلة التى قضيناها وسط الاستعدادات والأعمال التى لا نهاية لها، عاودته الرغبة فى الحديث عن موضوعه، ولكن الظروف لا تمهلنا.

وصلت إلى الجبهة ظهر الجمعة، وبدأت حرب التحرير بعد مرور أربع

وعشرين ساعة على وصولى. كان الوقت ضيقا، ولكننا حولناه بحماسنا إلى مساحة لا نهائية من الزمن. بمجرد أن تكاملت الوحدة، بدأنا على الفور فى حفر خندق يحيط بها من كل ناحية، وقمنا بتعبئة عدد كبير من الأكياس والأجولة بالرمال، وصنعنا منها سواتر تحيط بنا. نصبنا الخيام للإدارة، وخياما أخرى كعنابر للنوم، وخيمة تستخدم كمكان للكشف، وثالثة كحجرة لإجراء العمليات الجراحية. أما أكبر الخيام التى كانت معنا، فقد تقرر استخدامها كعنبر للمرضى الذين سيكونون فى انتظار الترحيل. ثمة خيمة أخيرة، قالوا لنا إنها ستستخدم كمشرحة، شعرنا بالانقباض ونحن نسوى مكانها وندق أوتادها فى الأرض ونربط أعمدة الخيمة بالأوتاد. لم يبق أمامنا سوى عمل إجراءات التمويه المعروفة، وحفر أماكن للسيارات تخفيها. ثم نصبنا المطبخ الميدانى، وأخفينا مخازن الدواء والذخيرة والسلاح والتعيينات الميدانية الجافة.

بعد هذا الجهد الضخم كانت لدى بعض الواجبات الإدارية. أنشأت وجهزت دفترا للأوامر اليومية، وسجلا للقوة الموجودة فى الوحدة، ودفترا للإشارات الصادرة والواردة، ودفترا لأحوال النوبتجيات وإجراءات التسليم والتسلم بين النوبتجيات. كان عملا شاقا ومرهقا، ولكننا كنا سعداء لدرجة أن الإحساس بالتعب لم يتسلل إلى أحد منا. وفى آخر الليل كانت مشكلة الضابط النوبتجى معنا هى إلحاحه علينا أن ننام مبكرين بقدر الإمكان. وحدتنا لم تكن مستشفى لعلاج الجرحى وإنقاذ المصابين واستقبال الشهداء، كان اسمها مستشفى الفرز الميدانى رقم واحد، من الاسم تبدو المهمة واضحة؛ مستشفى متقدم فى الخطوط الأمامية، يستقبل الحالات الساخنة ـ بلغة الميدان ـ فور وصولها إلينا وفرزها. البعض تقدم له إسعافات أولية وعلاجات سريعة، ثم يعاد

إلى الميدان فورا، والبعض الآخر نصف حالته المرضية. أما الشهداء فلهم إجراءاتهم التى نقوم بها فى مثل هذه الحالات.

أبلغنا بالأمر. كان مطلوبا منا أكثر من فصيلة، مكونة من الممرضين وحملة النقالات لكى يتقدموا إلى أبعد خط تحميه قواتنا، على أن يرفعوا علم الخدمات الطبية، على اعتبار أن المواثيق الدولية تحرم ضربنا خلال القتال. وقف قائد المستشفى الميدانى ليقرر من يتقدم إلى أبعد خط ممكن. وكان أبعد خط فى هذه اللحظة ـ أى فى صباح السبت ـ هو الشاطئ الغربى للقناة. كنا نقف فى طابور التمام الصباحى، الوقت هو السابعة صباحا. مصرى يقف على يمينى يرتدى «أفرول» لم يعرف الكى. بدا لى أنه وضعه تحت رأسه بالليل حتى يبدو مكويا. أعلن القائد أنه سيختار من يتقدمون إلى الخط الأول. رفع مصرى يده اليمنى، امتدت فى المسافة التى تفصلنا عن الطابور الواقف أمامنا راسمة خطا وهميا فى الهواء. اهتز جسمه مع كلمة واحدة نطق بها فى عزم:

ـ أفندم.

قبل أن يأذن له قائد المستشفى، تراجع إلى الخلف، وبخطوة سريعة لف حول الطابور، إلى أن أصبح أمام القائد مباشرة. حياه، أمر بتدوين اسمه فى رأس القائمة. حاولت أن أكون معه، ولكن طبيعة عملى الإدارى حالت دون ذلك، مكانى الطبيعى كان فى الوحدة نفسها.

لا بد من وصف آخر لحظة شاهدته فيها: بعد أن تم اختيار الفصيلة الأولى، وعين مصرى حكمدارا عليها. تحركوا لاستلام أربطة وعلاجات وطعام الميدان والكمامة الواقية من الغازات وزمزمية المياه. بسرعة وسهولة تمت إجراءات التسليم. لم أتمكن من محادثته. شاهدته يساعد زميلا له فى حمل نقالة بيده، وقد علق فى أفروله كل ما تسلمه منذ قليل. كان يقف فى

مكان مرتفع. شاهدت ملامح وجهه من أحد جانبيه، ومن خلفها رمال صحراء لا نهائية. وعندما استدار إلينا قبل تحرك الفصيلة، تأكد لى وجود حبات عرق نابتة فوق وجهه رغم اعتدال جو الخريف. أذكر هذا جيدا، لأن ضوء الشمس بدا لامعا عندما انعكس على جلد وجهه. بدأت حركة الفصيلة نحو الشرق بطيئة، ولكن مصرى كان مسرعا فى سيره لدرجة أنه خيل إلى أن تغييرا ما أصاب جسمه فجعل نصفه الأعلى مقوسا ناحية الأمام. ربما اتهمت بالمبالغة إن قلت إن جسم مصرى بدا على شكل قوس متجها ناحية الشرق. وتلك آخر مرة أراه ماشيا على قدميه.

خمسة عشر يوما لم أره فيها. كان المفروض أن تستبدل الفصيلة بشكل دورى نظرا لصعوبة الظروف. وبالفعل عادت الفصيلة ولكن مصرى كان يبقى دائما هناك، وتحولت حكايته إلى نوع من البطولة التى لا نعرف كيف نتحدث عنها. تبدو الكلمات مجهدة، واللغة قد شاخت وترهلت، ولم تعد تصلح للتعبير عن أى شىء.

إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرين من أكتوبر مساء. كنا فى الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، والقمر لا نراه إلا فى أواخر الليل. قالوا إن الأيام المتبقية من رمضان تقع فيها ليلة القدر، وعلى جنود الحراسة الليلة أن يحاولوا رؤيتها.

فى تلك الليلة وقبل انتصافها بقليل حضروا بمصرى إلينا. عاد محمولا على إحدى نقالات فصيلته. كان مصابا بشظية فى عنقه، وجرح فى بطنه، وكسر فى عظام قدمه اليسرى، ويبدو أنه أصيب وظل فترة من الوقت يعمل وسط الجرحى وهو مصاب، ولم يبلغ أحدا بإصابته، وظل هكذا إلى أن فقد وعيه وسقط على الأرض فاكتشفوا إصاباته الكثيرة. كان قد نزف كل دمه تقريبا، وتسممت إحدى جراحه. من لحظة حضوره تركت عملى.

وعلى باب خيمة الكشف قرأت على وجوه الأطباء الذين عاينوا حالته أنه ميئوس من علاجه، ولكن القائد أمر بعمل المستحيل.

قضيت بجواره فترة الهذيان المحموم. لم يخرج الهذيان عن معنى واحد. طلب منى بكل كلمات التوسل والرجاء التى عرفتها لغتنا أن أذهب إلى أهله، لا بد من إنصافهم. لقد عرفت حكايته، واستشهاده على أنه مصرى. وليس على أنه ابن العمدة، ولا بد من إيضاح الأمر مهما كانت الظروف. إنه لم ينفع أهله فى حياته، فليتحول استشهاده إلى بر أمان فى مواجهة مستقبل لا يعرف شكله أبدا. أخذت كلامه ببساطة. لم أتصور أبدا أن مصرى خلق ليموت، لا بد وأن يعيش، لو تمكنا من ترحيله إلى أى مستشفى قاعدة أو مستشفى مركزى مجهز. ظل هذيانه حتى اليوم التالى.

كان علىّ أن أتحرك فى إرسالية إلى القاهرة لإحضار أدوية من المستودع الرئيسى. فكرت فى الاعتذار عنها لكى أبقى بجوار مصرى، ولكنى خجلت من فكرة الاعتذار. بحثنا عن سيارة لها صندوق مغلق. اكتشفت أن أنسب سيارة هى سيارة نقل الموتى. صندوقها الخلفى ضخم ويمكن إغلاقه، وهو أفضل مكان لنقل الأدوية. أثناء تحرير أمر التشغيل وأوراق المهمة التى سنقدمها للشرطة العسكرية رن التليفون الميدانى والذى يوصلنا بقيادة المنطقة. عندما رفع الجندى سماعته تلقى إشارة تقضى بوقف إطلاق النار ابتداء من الساعة ١٨,٤٥ . وقبل أن يستقر الحزن فى أعماقنا ويترسب، قالوا إن مصرى يموت. جريت نحو خيمته. كان يذبل، يتلاشى، مددت يدى، فردت قدميه، وضعت يديه بجوار جسمه وأسبلت عينيه. أبلغنا قائد الوحدة. طلب منا أن ننتظر لنأخذ جثمانه معنا إلى القاهرة. وأوصى بضرورة ترحيله إلى بلده ليدفن فيها. بسرعة تم تجهيزه وتحرير شهادة الاستشهاد الخاصة به.

هأنذا جالس فى صندوق السيارة الخلفى. الراديو لا يزال مفتوحا. أدرت مؤشر المحطات. أتانى صوت وقور يقول:

ـ وفى الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة أصدر الفريق أحمد إسماعيل على، وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، نداء إلى جميع تشكيلات القوات المسلحة قال فيه:

ـ صدر أمر القائد الأعلى للقوات المسلحة بإيقاف إطلاق النار اعتبارا من الساعة ٤٥ ,١٨، اليوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣، بتوقيت القاهرة، إذا التزم العدو بإيقاف النيران فى هذا الموعد.

وصلنا القاهرة مساء. من النافذة رأيت الحياة كما تركتها. سبعة عشر يوما مضت. ومع هذا شاهدت طفلة تحمل أرغفة ساخنة من الخبز البلدى وهى تحرك أصابعها من تأثير السخونة عليها. شاب وفتاة تشابكت أصابعهما وربطت بين عيونهما خيوط النظرات يتناجيان فى أحد الشوارع المظلمة والمهجورة. وعجوز تتسول صدقة من متسكعى أول الليل.

وصلنا المستشفى ورغم أنها مغروسة وسط مدينة صامتة مستكينة لليل طويل قادم، بعيدة عن الميدان، إلا أن رائحة الحرب كانت تملؤها فى صمت. دخلت المستشفى من باب الحملة الخلفى، نقلنا مصرى إلى المشرحة. فتحنا الصندوق. كان حظر الإضاءة شاملا، وكنا نسبح فى بحار الليل. لم أشاهد ملامح وجه مصرى. كانت لدى رغبة فى إشعال عود كبريت لألقى نظرة أخيرة على الوجه المتعب المجهد، ولكن تعليمات حظر الإضاءة كانت سارية. ثم إنى عائد لتوى من ميدان القتال. وهذا يجعل إحساسى بجدية الموقف مختلفا عن أى شخص آخر.

خرج نوبتجى المشرحة، ذهب إلى الحى المجاور، اشترى لوحين من الثلج، كسرناهما إلى قطع صغيرة، وضعنا القطع حول الجثة من كل ناحية.

سألت عن إرسالية الدواء التى حضرت من أجلها. اكتشفت أن المستودع أرسلها صباح اليوم، وأمامى ثلاثة أيام حتى يتم تجهيز إرسالية جديدة. وهكذا شاءت الظروف أن أتمكن من السفر مع العزيز الغالى إلى بلدته. تفاصيل الرحلة وما تم هناك سيحكيه لكم حضرة الضابط فى الفصل القادم. يكفينى ما حكيته لكم. ولكنى كقاهرى لا أقول إننى ذهبت إلى ريف مصر لأول مرة كتعبير عن إقامتى طول العمر فى المدن، ولكنها كانت المرة الأولى بالفعل التى أرى الريف فيها جيدا.

لا بد من كلمة حول ما شاهدته هناك، أعرف أن بعضكم قد يقول وما علاقة كل هذا بالحرب التى جرت فى بر مصر، وما دار حولها من قصص وحكايات. ستكون الجواد الرابح لكل كتاب القصة والرواية من هواة مغازلة السلطة وكل سلطة إلى أن تقوم حرب جديدة. ولكنى سأكمل رحلتى. فى البلد كان حرصى شديدا، لأسباب لا أعرفها، على مشاهدة أهل مصرى، الأب والأم وأخواته البنات. كنت أعرف الكل من قبل، أعاد مصرى خلقهم لى من خلال حكاياته الطويلة فى ليالينا. إنها المرة الأولى التى ألمس فيها والد مصرى. عرفته مرتين: مرة من كلام مصرى، وهذه هى المرة الثانية. قدم لى وجها لعبت به العواطف مثل الأنغام الواضحة. لا أدرى لماذا وجدت نفسى مشدودا لأمه. فى اللحظة التى وقعت عينى عليها انبثقت من ذهنى كلمة واحدة، خرجت إلى شفتى دون أن أدرى:

ـ فلاحة.

حاولت أن أتذكر كل ما أعرفه عن الفلاحة. تكلمت معها. كانت بداخلى رغبة حارقة أن أضع يدها على الشىء الإنسانى الذى يربطنى بابنها الوحيد. ردت على، تناوبت الكلمات والدموع، كل كلمة تنتزع من بئر العين ومن الصدر الخاوى انتحابة مضطربة. كان صوت بكائها مثل

هديل الحمام فى البنانى. اكتشفت أنى أقف أمامها وأنى غريب وأن البكاء أمامى عيب. حاولت أن تضحك. تبتلع دموعها، شوهت وجهها ابتسامة عكرة عجزت عن تبديد لحظة الحزن.

فى طريق العودة، شعرت برغبة فى البكاء؛ لأن أهل مصرى كانوا يريدون إظهار حبهم لى بكل صورة من الصور. وبعد التطورات التى ستعرفونها فيما بعد، فكرت كثيرا، هل من حقى إثبات ما فكرت فيه هنا؟ أستأذنكم فى فعل هذا. كنت أجلس أمام دوار العمدة. الليل غويط مملوء بأصوات ريفية غامضة، بدت كالرموز فى حاجة إلى من يحلها لى. التحقيق يجرى بالداخل وأنا جالس. الفكر مثل موج البحر يذهب ويجىء، فى الطريق إلى البلد رأيت مشاهد العذاب والبؤس الذى بلا حدود. ترحمت على بلدنا وعلى ما أصابها. قلت لنفسى متى يرفع اللـه الكرب والبلاء والغمة عن مصر؟! لا أحد يعلم متى يحدث هذا. ولكنى أعتقد أن الحال لا يمكن أن يستمر هكذا طويلا، ثم أين عدل اللـه فى حكاية مصرى كلها. لو كان هناك عدل لأعطى الفقراء ما يدافعون به عن أنفسهم. بيدهم الحق، ولكن من قال إن الحق له قيمة فى مواجهة القوة؟! الحق بمفرده عاجز. بندقية توجه طلقاتها للخلف، إلى صدر الممسك بها. سيف خشبى مكسور. إن أهل مصرى لا يملكون سوى أيديهم. العمدة قوى، ويردد دائما أن قوته من اللـه، ويبدو أن هذا صحيح. عموما إن كان اللـه قد اختار صف الأغنياء وقرر أن يكون ربهم وحدهم، فما على الفقراء إلا البحث عن رب لهم. من يدرى قد يجدونه. ربما كان فى انتظارهم منذ أن عرف عالمنا المسافات الضخمة بين الفقراء والأغنياء، والتى تزداد اتساعا كل يوم.

قلت لنفسى، ها نحن نعود من الميدان لنجد أن الزمن الدامى قد بدأ فى بلدنا. هل عدنا من حرب لنجد أن حربا أخرى فى انتظارنا؟ أعتقد أن ذلك كان خطأنا نحن. ففى الحرب التى أنهوها أمس فقط، كان العدو من

الخلف ومن الأمام، وكل رصاصة انطلقت فى اتجاه سيناء السليبة، كان لا بد أن تقابلها رصاصة أخرى إلى الخلف، باتجاه مصر المقيدة والمحتلة بمحتل من نوع آخر؛ بالفقر والتخلف والظلم والقهر. ولكننا لم ندرك. وجهنا كل الجهد نحو العدو الظاهر الواضح. تركنا الأعداء السرطانية الخبيثة، تلك التى لا وجود لها أمام الأعين. كان لنا العذر. تصورنا أن أهلنا سيقومون بتلك المهمة بدلا منا، ولكنهم خيبوا ظننا. وهذا ما يجعلها مهمتنا التى لا بد وأن نقوم بها الآن، لن يتأخر ذلك. التأخر معناه أن السرطان سيسرى فى جسم الوطن بشكل يصعب معه العلاج. من يدرى، فقد يصل استفحال الخطر إلى أن يصبح العلاج الوحيد هو استئصال الجسم كله، والحلان أحلاهما مر.

إن الدرس الذى تعلمته اليوم جيدا أن بلدنا أصبحت مثل القطط تأكل أبناءها بدون رحمة، وأن هؤلاء الأبناء أنفسهم يخرجون إلى الدنيا مثل السمك، الكبير يأكل الصغير. لننظر جيدا إلى بلدنا الآن؛ إنه عالم غريب، ملغوم وآمن، صعب وسهل. محب وحاقد، متخم وجائع. ولكنه لنا على أية حال، وهنا القضية. هذا البلد لنا كيف ومتى؟ ولمن منا بالتحديد؟ ألستم معى أن كلمة «أن البلد لنا» تحتوى الكثير من المعانى بداخلها؟

كنت أتمنى. آه. وماذا نملك فى تلك الأيام غير التمنى. كنت أتمنى لو أن الحرب لا تزال قائمة، لكى أحضر نقطة من دمى. آخر دم دافع عن تراب وادى النيل أختم بها آخر الفصل الخاص بى فى هذه الرواية. ذلك أن عصر الحروب انتهى. وبدأ فى مصر عصر الكلام. ولأن الكلمات تشتعل من بعضها البعض، فلن يعرف بر مصر سوى الكلمات. ومن جديد أقول «كنت أتمنى». لندع كل هذا. أمامى مهمة واحدة، وهى: كيف أسكت نفسى؟ أمسك بيدى أمنعها من مواصلة الكتابة؟ فالصمت أجدى من كلمات تقال فى عصر يعوم فيه الكل فى بحار الكلمات!

الضابط

حمدت اللـه أنى لم أكن أعرفه. لم أره أبدا. لم تقع عيناى على وجهه من قبل. أمس الأول حضرت إلى الوحدة. قدمت أوراقى وقابلنى القائد. مر يوم واحد، بعدها كلفت بهذه المهمة. يبدو أن الكل يهرب منها لطبيعتها الكئيبة. كدت أن أعترض، ولكنى لم أشأ أن أبدأ وجودى هنا بالرفض والاعتذار عن مهمة ما. خاصة وأننى عندما قدمت أوراقى إلى قائد الوحدة ركز على معنى واحد:

ـ ضابط عامل أم احتياط؟

قلت بصوت عادى:

ـ احتياط يا افندم.

النظرة على وجهه لم تكن مستريحة، ثمة قلق بين العينين. قالوا لى إن السفر بالشهداء إلى بلادهم وتسليم جثثهم إلى أهليهم من صميم عملى كضابط للخدمة الاجتماعية. كنا ثلاثة فى قسم الخدمة الاجتماعية بالوحدة: آنسة برتبة ملازم أول، وسيدة تحمل رتبة الرائد. وليس من المعقول أن تقوم إحداهما بهذه المهمة. أخذت التعليمات ونزلت.

من يوم حضورى إلى هنا والمشرحة هى عذابى الوحيد. فى اليومين الماضيين كنت أشاهد حولها جموعا من الناس حضروا لاستلام جثث.

يبدو أن هذا منظر يومى ثابت. عندما نزلت لم أجد أحدا حول المشرحة. دهشت، ولكنى عندما قرأت عنوان الشهيد زالت دهشتى، فهو ليس من أبناء القاهرة. فذهبت إلى قائد السرية، وهو ضابط شرف برتبة نقيب. قدمت له نفسى، صافحته وطلبت منه تعيين أفراد لكى يسافروا معى فى هذه المهمة. ضغط على جرس بجواره، طلب من المراسلة إحضار حكمدار مكتب السرية، ليعين الأفراد الذين سيسافرون معى بالجثة. وحسب التعليمات أتى الجندى المسئول عن عناوين أفراد القوة من مكتب السرية، ومعه العنوان الرسمى للشهيد على ورقة من أصل وصورة. المفروض أن يسلمنى الأصل وأوقع له على الصورة. تسلمت الأصل. وأنا أوقع سألته عرضا:

ـ ألا تعرف طريق الوصول إلى بلدته؟

قال باقتضاب:

ـ لا.

أكملت بطريقة أهون بها المسألة على نفسى:

ـ من يسأل لا يتوه.

تحرك الجندى، عاد ومعه حكمدار مكتب السرية. قالا معا. إنهما يستأذنان فى سفر جندى، صديق الشهيد معى إلى بلده. كان الصديق أقرب الناس إليه، وهو يعتقد أنه يعرف عنوانه. سألت:

ـ هل هناك ما يمنعه من الحضور؟

ـ بالعكس إنه يرجو الذهاب معك.

فى هذه اللحظة دخل علينا جندى بلباس الميدان، حيا الضابط وحيانى،

قال إن هناك ظروفا قاسية تدفعه إلى طلب السفر معنا إلى بلد الشهيد، سأله قائد السرية:

ـ هل أنت بلدياته؟

ـ لا.

ـ إذن ما سبب إصرارك على السفر؟

ـ ظرف خاص.

أفهمه الضابط بأنه لا يمانع فى سفره. المشكلة بالنسبة له أنه ليس من قوة الوحدة. فهو منذ ترحيله إلى الميدان يعد ملحقا على مستشفى الفرز الميدانى رقم واحد، وهى الجهة الوحيدة التى تملك الموافقة على سفره فى مهمة رسمية أو عدم الموافقة. ثم إنه حضر إلى الوحدة فى عمل آخر، وهو أخذ كميات من الدواء من المستودع الرئيسى. فهل يؤخر الدواء لحين عودته؟ رد عليه جندى الميدان، قال إن الدواء سيتأخر ثلاثة أيام. ثم ما المانع من سفره بدون شكل رسمى؟ وهنا وافق الضابط.

خفت أن لا يكون له مكان فى السيارة معنا. فكرت فى معارضة الشرطة العسكرية ومضايقتها. ولكن ما دام هو الوحيد الذى يعرف الشهيد، وربما يعرف أهله والطريق إلى بلده، فوجوده معنا أحسن من الجرى والتوهان فى بلاد اللـه الواسعة، خاصة وأن وصولنا هناك سيكون بالليل. كانت مهمتى الأولى ويهمنى نجاحها، تم تعيين جندى آخر وحكمدار وسائق سيارة وميكانيكى مدنى لاحتمال إصابة السيارة بعطل فى الطريق. وأخذت قرارا من مكتب السرية بسفرهم معى فى المهمة وعمل التصريح الخاص بهم.

خرجت من مكتب قائد السرية. وكان معى صديق الشهيد. كان يبدو عليه اضطراب واضح للعين. لم أهتم باضطرابه، قلت إن السبب فى حالته

هو حزنه على زميله. من يدرى ربما يكون قد استشهد بين يديه فى الجبهة. ذلك موقف إنسانى صعب من كل الوجوه. جلسنا ننتظر بعض الأوراق. نطقت ملامح وجهه بمعان أخرى غير الحزن. رحت أرصدها وأفكر، هل هى اضطراب؟ رهبة؟ حزن؟ يده اليمنى كانت ترتعش. أتذكر ذلك جيدا، كان يريد أن يقول لى شيئا ما، ولكنه تردد، أو لعلنى لم أقترب منه أو لم أشجعه، مع أنى ودود، أقترب من الناس بسرعة وأختصر المسافات بينى وبينهم فى لمح البصر ودونها أية تعقيدات، سكت، تصورت أن صورتى كضابط جديد أرهبته. كنت غبيا، كانت الانفعالات والعواطف تلعب على وجهه. وكان يفرك يديه فى بعضهما، حتى كاد الدم ينحبس فيهما. ثم خبط يده فى رأسه بشكل عصبى. قلت له:

ـ هل هناك شىء يا دفعة؟

ابتعدت شفتاه عن بعضهما، خرج من فمه هواء ما قبل الكلمات، أما الأحرف والأصوات التى تعبر عنها فقد ماتت على لسانه، لم ينطق، من ناحيتى لم يكن لدى وقت لأهتم بما سيقوله. تركته ومشيت. طول الوقت بدا متعبا يحمل ثقلا على كتفيه، بداخله سر، أمر ما لا بد وأن يقوله.

بعد وصولى إلى البلد، ومعرفتى الحكاية من الألف إلى الياء، لمت نفسى، ندمت، قلت:

ـ ليتنى سمعته، ومددت له يدى، وأعطيته قلبى.

ولكن هل كان هذا سيغير من الأمر شيئا ويحول دون حدوث ما حدث؟ لا أعتقد. المسألة أكبر وأبعد من هذا. ناديت على العريف حكمدار الجماعة التى ستخرج معى. طلبت منه التأكد من وجود أمانات الشهيد.

أكمل صديقه:

ـ ولا تنس صور مصرى التى التقطت له فى الوحدة.

سألته:

ـ مصرى من؟

قال:

ـ الشهيد.

تصورت أن مصرى هو اسم الشهرة، وأن الاسم المدون فى أوراقى هو الاسم الأصلى.

سألته:

ـ مصرى هو اسم الدلع؟

ـ هل يعرف الفقراء أسماء الدلع؟!

استدرك موضحا:

ـ الاسم المدون فى أوراقك هو الصحيح.

قلت مصرى مجازا. أليس كل أبناء بلدنا اسمهم مصرى؟

بدا تصرفه عاديا. ولكنه عندما حذرنى ونحن فى الطريق إلى البلد من ذكر أى شىء عن اسم مصرى، أدركت أن فى الأمر ما لا أعرفه. وإن كنت لم أعط الحكاية من الاهتمام أكثر من هذا.

صعدت إلى المكتب، سألت رئيسة القسم عن الإجراءات الباقية. قلت لها إن كانت لديها تعليمات ثابتة، فى كتب، أو نظام عمل، أين هى؟ رجوتها أن تعطينى إياها حتى أتصرف بشكل سليم. ابتسمت، وقالت لى إنه لا توجد كتب ولا تعليمات مكتوبة. وهم يعرفون ما يتبع فى مثل هذه الحالات من الذين خدموا قبلهم.

أحضرت لى ورقة وقلما. طلبت منى كتابة الإجراءات. قلت لها إن ذاكرتى قوية ولن أنسى أى إجراء. قالت بلهجة العارف:

ـ كلهم يقولون الكلمات نفسها وأثناء التنفيذ ينسون الكثير.

أذعنت وبدأت الكتابة. قالت:

ـ الوصايا العشر لدفن شهداء الواجب بالشكل اللائق بهم.

فى حالة استشهاد فرد من القوات المسلحة من الجنود وصف الضباط تتبع التعليمات الآتية:

(عرفت فيما بعد أن للضباط إجراءات خاصة، غير تلك التى تتبع مع ضباط الصف والجنود، وهى تختلف كثيرا عنها).

١ ـ التأكد من وجود شهادة أو إقرار الاستشهاد على النموذج المعد لذلك من إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة. وأن يكون النموذج مستوفيا البيانات، وموقعا من شاهدى عيان، ومعتمدا من أركان حرب الوحدة وقائدها، وموضحا به ساعة وتاريخ ومكان الاستشهاد، وملخصا ظروف الاستشهاد.

٢ ـ إن لم تكن هناك شهادة بسبب ظروف العمليات يعمل مجلس تحقيق بمعرفة اللجنة الشهرية، يؤكد الاستشهاد ويستوفى البيانات السابقة.

٣ ـ الحصول على عنوان الشهيد فى ورقة رسمية معتمدة من مسئول برتبة ضابط أو مساعد على الأقل؛ فالعنوان هو الدليل الوحيد للوصول إلى أهل الشهيد بسرعة، وأن يؤخذ من آخر دفتر عناوين، ويستحسن أن يكون الدفتر الذى أنشئ فى ظل ظروف العمليات فهو أقرب إلى الدقة عادة.

٤ ـ طلب صورة من إقرار المقاتل والمدون بخط يده، والذى يقر فيه لمن تصرف مستحقاته المالية فى حالة الوفاة أو الاستشهاد. وإن وجد فى ملفه أكثر من إقرار يؤخذ بآخر إقرار.

٥ ـ تسليم الأمانات التى وجدت مع الجثة بعد الاستشهاد بموجب محضر رسمى، وتسليمها للمستفيد مع الاكتفاء بتوقيعه على المحضر الأول.

٦ ـ صرف نفقات الجنازة والإعانة المالية العاجلة، المقدرة بموجب التعليمات المستديمة بالنسبة للصف والجنود من الشئون الشخصية، وتسليمها لأهله.

٧ ـ استخراج شهادة وفاة وتصريح دفن للشهيد من أقرب مكتب صحة لوحدته بناء على إقرار الوحدة بالاستشهاد.

٨ ـ التأكد من تجهيزه للدفن، وتكفينه فى مشرحة الوحدة، ووضعه فى صندوق مغلق جيدا قبل التحرك إلى بلدته.

٩ ـ فى البلد يتم التوجه إلى المسئولين المحليين، والذهاب فورا إلى المقابر، ثم التعرف على أهل الشهيد، وإحضارهم بمفردهم وفى وجود المسئولين. وهناك يحمل الشهيد من سيارة الجيش إلى المقبرة مباشرة ودون أن يفتح الصندوق أحد.

١٠ ـ بعد العودة من المهمة، يدون ضابط الخدمة الاجتماعية تقريرا بنجاح الخطوات التى قام بها، كما يدون توصياته ورأيه واقتراحاته للأخذ بها مستقبلا، ومن حقه اقتراح بعض التعديلات لخطوات العمل.

أخذت الأوراق التى دونت بها الخطوات العشر ودرستها بعناية وقمت بعمل خطتى، استدعيت الحكمدار المسافر معى، كلفته باستخراج

تصريح الدفن وشهادة الوفاة، وأخذ صورة طبق الأصل معتمدة ومختومة من إقراره بمن تصرف لهم مستحقاته المالية، والإشراف على تجهيزه للدفن. مع العلم بأنه لا يجب غسل الشهيد.

توجهت إلى الشئون الشخصية لكى أنتهى من الأمور المالية. وكلفت جنديا آخر بالحصول على تصريح مرور السيارة وأمر كتابى لملء خزان السيارة الأساسى وخزانها الاحتياطى بالوقود. اتفقنا على أن نلتقى أمام المشرحة بعد ساعتين.

خرجت. شاهدت الشوارع المبطنة بالفتيات والشبان. آلاف من الناس يسعون فى حياة كل يوم، أدركت بعد المسافة بيننا وبينهم. تذكرت أنى على موعد بعد الإفطار مع الأصدقاء لأحكى لهم عن يومى الأول فى الخدمة العسكرية كضابط، أدركت أنى لن أذهب إليهم إلا بمعجزة، تتمثل فى سفرى وعودتى قبل الإفطار، وأعتقد صعوبة حدوث هذا. قررت الاتصال بواحد من الشلة والاعتذار عن الموعد، بسبب سفرى فى مهمة لا أستطيع الكشف عنها إلا بعد العودة، ولا يمكننى تناولها بالحديث فى التليفونات خاصة فى الظروف الدقيقة التى يمر بها الوطن. ما سأقوم به عمل عادى ولا بأس من تحويله إلى عمل غير عادى.

كان موعدنا فى شقة مفروشة بالعجوزة، استأجرتها مع ثلاثة من الأصدقاء. نكون شلة واحدة: واحد فى الجيش مثلى، وواحد أعفى من الخدمة العسكرية لأنه وحيد أبويه وكل أخوته بنات، والرابع تهرب من التجنيد بطريقة لا أحب الحديث عنها. لم يكن بالشقة تليفون، وكل منا يستخدمها كما يحلو له، على أن يخبر الباقين مقدما، فلا يذهب أحد منا أثناء وجود آخر فيها. سأتصل بأحدهم بعد عودتى للاعتذار.

فكرت فى الذهاب إلى بيتنا لإحضار غيارات داخلية وبيجامة وماكينة

حلاقة وفوطة، ولكنى ترددت فى الذهاب. قال لى الكل إن المهمة فى بلد الشهيد لن تستغرق أكثر من ساعة، بل قد يتم الأمر فى دقائق، سأرتبط فى أذهان أهل الشهيد بعودة ابنهم إليهم فى صندوق مغلق، لهذا بمجرد أن أعلن عن رغبتى فى السفر لن يتمسك بى أحد. تذكرت حبيبتى البيضاء الممتلئة، البضة، والأمسية الرائعة التى كنت سأقضيها معها فى شقة العجوزة بعد استئذان أفراد الشلة واحدا بعد الآخر، يغمزون لى بأعينهم متمنين لى أمسية ناعمة، فوصلت إلى حافة غضب حقيقى. نفخت فى غيظ. الاتصال بها مستحيل، وعدم ذهابى فى الموعد معناه أنه أمامى شهور طويلة من الخصام والعتاب وتقديم الأعذار وشرح الأسباب. كان عزائى طبيعة المهمة.

فى المكاتب وجدت موظفين مدنيين وضابطا يجلسون فى مكاتب فاخرة ، تحت أقدامهم سجاجيد تغوص فيها الأحذية فلا يبدو منها شىء، وبجوار المكاتب مدافئ يشع منها ضوء أحمر رغم أن الشتاء لم يحل بعد، وبجوارهم تليفونات ترن فجأة، تحمل لهم كلمات عن الصحة والحال وأسعار اللحم ووعود بعمل وساطات للحصول على كميات من الدجاج، وآخر سعر وصل إليه الدولار فى السوق السوداء، والسؤال عن أرق مكان لقضاء سهرة ممتعة. قدمت لهم الأوراق التى أحملها، والتى تؤكد أن أحد أبناء مصر استشهد أمس الأول فى سبيلها. كنت أتصور أنهم سينظرون فى الأوراق بقدر كبير من الاحترام، وسيسهلون لى مهمتى ذات الطابع الخاص. دهشت. الموظف الجالس خلف النافذة المغطاة بشبكة من الحديد نظر فى الأوراق بغضب، ثم نظر فى ساعته، ونفخ فى الهواء:

ـ حضرتك متأخر.

رحت أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ الأوراق، لم يبد عليه أى تغيير. أعاد

الأوراق، ثم قال لى: خاتم شهادة الاستشهاد غير واضح ولا بد من ختمها من جديد. أفهمته أن الوحدة فى الخطوط الأمامية. قال كلمة واحدة:

ـ ولو.

شرحت له؛ الشهيد مضت عليه ثلاثة أيام! أشار بيده طالبا منى السكوت، وأشار إلى باب صغير على يمينه، وطلب منى عرض الأمر على رئيس المكتب الذى كان جالسا بيده مسبحة طويلة وشفتاه تتمتمان بصوت لا يسمعه أحد سواه. كلمته، لم يرد على إلا بعد انتهائه من كلماته. ظلت المسبحة فى يمينه تعبث بها أصابعه. مد يده اليسرى، أمسك بالأوراق، نظر وطالت نظرته، وتحركت شفتاه من جديد. تمنيت أن تكون حركة الشفتين لقراءة ما أمامه. بعد أن عرف سبب اعتراض الموظف قال:

ـ معه حق.

قال إنه ينفذ تعليمات ثابتة عنده. الحوار الذى دار بينى وبينه كان مرهقا ولم يكن ضروريا. ونظرا لدقة الظروف وطول الحوار، قدم لى تسهيلا. طلب منى كتابة إقرار بأن الختم الموجود فى الشهادة صحيح، وأن أدون اسمى وكل بياناتى فى الإقرار، وإن ظهر أنه غير صحيح أتحمل المسئولية كاملة.

عدت إلى المستشفى متعبا. جلست فى انتظار عودة من ذهبوا لإحضار الأوراق المطلوبة. اتصلت بأحد أصدقائى واعتذرت عن الموعد. اكتمل الجمع. وضعنا الصندوق الموجود بداخله الجثة فى السيارة من الخلف. جلس بجوار الصندوق الميكانيكى والفردان المعينان معى. جلس بينى وبين السائق صديق الشهيد.

كان الوقت عصرا، قبل خروجنا من القاهرة حسبنا الوقت، سيكون

وصولنا إلى بلد الشهيد بعد الإفطار. سنفطر فى الطريق، بالتحديد فى طنطا. ثم نتحرك إلى البلد لنصل بعد الإفطار بوقت كاف. تحسست جيبى، تأكدت من وجود ورقة العنوان معى. كان المشوار شاقا. السيارة متعبة، وجو الخريف الذى لا طعم له يحيط بنا من كل ناحية.

أصبحت السيارة على الطريق الزراعى مصر ـ إسكندرية، الشمس الصفراء الباهتة اللينة فى وجوهنا. السيارة بطيئة. قال السائق مدافعا: إنها سيارة ممتازة، وتستطيع أن تسبق أى سيارة، مد يده، أرانى عداد السرعة، وكان آخر رقم فيه: مئة وستون كيلو مترا، ولكن قائد الحملة تفاديا للحوادث ـ وخاصة أن كل مشاوير السيارة على الطرق السريعة ـ قام بتخفيض السرعة، جعل حدها الأقصى ستين كيلو مترا فقط. مع رجرجات السيارة غفوت. ركنت رأسى لزجاج الباب المجاور لى. ويبدو أن الجالس بجوارى نام هو الآخر. مما دفع السائق إلى إيقاظنا معا. أعطانا درسا مطولا فى أصول الجلوس بجوار السائق فى الطرق السريعة. قال إن نوم من يجلسون بجوار السائق هو السبب فى كثرة الحوادث، وأنه يعتمد فى سفرياته الكثيرة على أحاديث من يجلسون بجاوره. وأنه يكون فى يقظة تامة إن كان الجالس بجواره متحدثا لبقا، وكلامه شيقا، وأكثر الكلام تشويقا الحكايات والحواديت والقصص العجيبة. أما الكلام فى العلم والسياسة فيجعل النوم يكبس عليه فورا. سألته:

ـ وإن لم يجد راكبا يجيد الحديث؟!

ضحك، هدأ من سرعة السيارة، خلع الطاقية العسكرية من فوق رأسه، وضعها على فتيس السرعات وبدأ الحديث. قال إنه تعلم قيادة السيارات على يد سائق تعلم فى معسكرات الإنجليز فى الزمان القديم. علمه أنه إن

تصادف سفره بمفرده وغلبه النوم من السير ورجرجة السيارة، فهناك تعليهات ينفذها وهى محفوظة مثل جدول الضرب:

ـ أولها أن يكلم نفسه، يحكى قصة من قصص جدته العجوز فى ليالى الشتاء الطويلة. والحكايات لا تصلح لكل الوقت، ولمجرد أن يكتشف انصرافه عنها يصل إلى المرحلة الثانية، وفيها يصفر بفمه بعض الألحان السهلة التى يغنيها بسهولة، ويغنى لنفسه بصوت مرتفع يكفى لإيقاظه من النوم. مللت السماع وإن كان الكلام جديدا بالنسبة لى، أسمعه لأول مرة فى حياتى. ولكى نصل إلى ختام حديثه سألته:

ـ وإن فشلت كل هذه المحاولات فى طرد النوم ماذا تفعل؟

قال إن سؤالى وجيه، ويكشف عن ذكاء من النادر أن يجده عند ضابط سواى. قال بعد فشل محاولاته تبقى المحاولة الأخيرة، سألنى:

ـ هل تعرفها؟

قلت بدهشة:

ـ طبعا لا.

قال إنه سيحكيها لى والأجر والثواب عند الله وحده. المحاولة الأخيرة هى شد شعره. يمسك عجلة القيادة بأكثر اليدين مهارة. اليسرى أو اليمنى وباليد الأخرى يشد خصلة من شعره.

لم يوقفه عن الحديث سوى طرقات من صندوق السيارة الخلفى. أشاروا لنا، طلبوا التوقف. نزلنا، كان الجالسون فى الخلف يسبحون فى بحار من العرق، يصحبه احمرار فى وجوههم. قالوا إنهم وصلوا لدرجة الاختناق، وأن الصندوق الموجود به الجثة تنبعث منه رائحة أفسدت الهواء الموجود فى العربة، وأن بعضهم تقيأ. أدركت صعوبة الجلوس مع جثة شهيد استشهد

منذ ثلاثة أيام قضاها فى مشرحة ميدان، ثم نقل إلى مشرحة المستشفى وهى غير مجهزة، رغم أنى عرفت اليوم من الجندى المعين للإشراف عليها أنها استقبلت شهداء أربعة حروب مرت على مصر.

استرحنا، جلسنا فى الهواء. وغير السائق الماء للسيارة. فى المسافة الباقية لم يعرف الصمت طريقه إلينا. كان المتحدث هو السائق، حديثه هذه المرة عن سفرياته الكثيرة مع الشهداء والموتى من المرضى العاديين بالمستشفى، وحتى فى هذه الناحية حول الحديث إلى نوع من الفخر، قال إن أهم ما يميزه هو قوة أعصابه الحديدية. ولكى يدلل على ما قاله، أكد أن سائق هذه السيارة جن من كثرة الرحلات مع الشهداء والموتى، وأنه الآن نزيل القسم الداخلى بمستشفى الأمراض العقلية، وأن المرض بدأ عنده بذهول أصابه من مشاهدته للحظات معرفة أهل الشهيد أو الميت بالخبر، وتصرفاتهم أثناء الدفن. أما هو فقد أكمل عامه الثالث فى هذا العمل الكريه وعقله سليم.

آخر ما قاله كان عن الشهيد الذى نسافر به اليوم، حكى ذكرياته معه، ورأيه فيه، وطلب له الرحمة من رب العباد. سألنى عن بلده: هل هى قرية؟ بندر؟ مركز؟ قلت إنها قرية. قال: إن أهل القرى كرماء وعندهم شهامة. وإن كان حزنهم صعبا. اقترب المغرب. لم يكن معنا راديو. ولكن عندما أذن بالمغرب عرفنا أن وقت الإفطار قد حان من ندرة حركة الطريق والهدوء الذى هبط فجأة.

اتجهنا إلى أول مدينة قابلتنا لكى نفطر. لم أكن متحمسا لفكرة الإفطار فى مطعم. نزل جنديان اشتريا طعاما من سوق المدينة. رفضت الجلوس فى إحدى المقاهى. جلسنا فى السيارة. أكلنا بسرعة وشربنا شايا أحضروه لنا

من مقهى قريب. استأذن الجندى والميكانيكى فى الذهاب إلى مقهى قريب لتدخين الشيشة. طلبت منهما العودة بسرعة.

ثم تحركنا فى اتجاه البلد، وكان ظلام الليل قد استتب خارج المدينة. بدأ صديق الشهيد يستعيد وصف الطريق من ذهنه. كنت خائفا أن نتوه. وصلنا إلى النقطة التى من المفروض ترك الطريق السريع فيها، ونتجه إلى طريق ترابى جانبى. كان الطريق محفورا فى ذهن صديق الشهيد، والعلامات التى قدمها لى من الصعب عدم معرفتها. قال لى سنجد «كوبرى» علويًا بجوار مدرسة ابتدائية ملحقة بمحطة السكة الحديد، خلف المدرسة مساكن العاملين فى السكة الحديد، وأمام المساكن مزلقان تعبره إلى الطريق الترابى.

عندما أصبحنا على الطريق الترابى وجدنا أننا أسلمنا أنفسنا لعالم مكون من طبقات الظلام. توقفنا. نزل صديق الشهيد، اتجه إلى المزلقان الذى كان ينبعث منه ضوء نار هادئة على الأرض، يصنع عليها الملاحظ شايا. سأله عن البلد، وبدلا من أن يجيبه ملاحظ المزلقان مد يده، أشار إلى فلاح كان يجلس بجواره، قال له إن حظه من السماء، وأننا لا بد وأن نسعى فى عمل خير فى هذا الوقت المبارك، لسبب بسيط أن الجالس بجواره ذاهب إلى نفس البلد، وهو يجلس فى انتظار أية وسيلة تقله، سيركب معنا ويدلنا على الطريق.

قام الفلاح، نفض جلبابه فقد كان يجلس على الأرض العراء، أمسك به ملاحظ المزلقان وعزم علينا بالشاى الذى كان ينطلق من براده وشش خافت. شكرناه. ركب معنا الفلاح. قدم لنا كلمات شكر كثيرة ومتنوعة وقال إن السماء هى التى أرسلتنا له فى هذا الوقت، وأنه كان ينوى المبيت فى المزلقان إن لم تأت سيارة. وطبعا لن تأتى سيارات حتى الصباح.

ـ هل المسافة بعيدة؟

قال:

ـ بسيطة.

ـ كم كيلو؟

رد على بمنطق آخر:

ـ ساعتان مشيا على الأقدام وربع ساعة بالسيارة.

تدخل السائق قائلا إنه من خلال خبرته الدقيقة يستطيع أن يؤكد أن المسافة فى هذه الحالة لا تقل عن العشرة كيلو مترات. سألت الفلاح ولماذا لا يتمشى، خاصة وأن الجو هنا صحى والهواء نقى. ضحك وقال، يبدو أنى لست من أهل الريف، وأنى من أبناء المدن التى تسبح فى بحار الأنوار الملونة من الغروب وحتى الصباح، والمليئة بالعساكر المدججة بالسلاح لحراسة الناس والبيوت والدكاكين. أما هنا:

ـ لقد انطلقت ذئابها على كلابها.

لم أفهم، ولكن الرجل قال لى إنه منذ وعى على الدنيا والحال هادئ والكل يعيش فى سلام ومحبة. فى الفترة الأخيرة، ظهرت عصابات الخطف والقتل والسرقة فى الليل. الحوادث أصبحت كثيرة. من يدرى ماذا قد يحدث فى المستقبل. هل كان أحد يتصور أن الريف الآمن بكل ما فيه من كرم وسماحة ومحبة يحدث به هذا؟! بدا لى الرجل فلاحا طيبا. استرحت له. ولكن كل المتاعب التى حدثت لنا بعد هذا أتت منه، انتهت حكاياته عن العصابات، فحل علينا صمت لم يكن يقطعه سوى صوت السيارة المتحركة ببطء على الطريق، غير الممهد. فجأة التفت إلى الفلاح وسألنى:

ـ ذاهبون لمن فى البلد؟

ذكرت اسم والد الشهيد المدون فى الأوراق معى. وكان الاسم قد علق بذهنى من كثرة إخراجى للورقة وقراءتها. قال الرجل:

ـ إنه عمدة البلد وهو موجود.

ولأن السائق يصر على المشاركة فى كل الأحاديث. أشار إلى صندوق السيارة وقال للفلاح:

ـ البقية فى حياتكم.

خبط الرجل صدره بفزع:

ـ بعد الشر. من؟!

ـ ابن العمدة.

ـ لم يكن للعمدة أبناء يعالجون فى البنادر. أم هو حادث؟

صاح فيه السائق بغضب:

ـ أى حادث. إنه شهيد.

تساءل الفلاح :

ـ فى الحرب؟

ـ الحمد للـه على أنك فهمت.

فكر الرجل فى الأمر وظهر على وجهه الاهتمام. رفع يده فجأة:

ـ ولكن العمدة ليس له أولاد فى الجيش.

خرج صديق الشهيد من صمته وسأل الفلاح:

ـ ومن أدراك؟

ـ أنا متأكد.

ـ ونحن أيضا متأكدون.

لحظة الصمت الطارئة لم تحمل الاطمئنان لأحد منا. بدا الرجل قلقا وكأنه فقد القدرة على الجلسة المريحة. ولهذا تساءل:

ـ كل أبناء العمدة الذكور أعفوا من التجنيد وفاتوا سنهم، أصغر أبنائه وهو الوحيد الذى كان يجب أن يجند فى البلد!

ـ متى شاهدته؟

ـ صباح اليوم وسلمت عليه.

قال صديق الشهيد بمرارة:

ـ قد يكون للعمدة ابن لا تعلمون عنه شيئا.

أدرك الفلاح السخرية فى الحديث، فقال بمرارة أكثر:

ـ من يدرى، ربما كان ابن العمدة وليا، قادر على أن يوجد فى مكانين معا فى وقت واحد. ألسنا فى زمن المعجزات؟!

وهكذا وجدت نفسى طرفا فى مشكلة من نوع غريب. عندما بدأ الفلاح ثرثرته، قلت إنه رغى نقطع به الطريق، ولم أتصور أن يوصلنا كلامه إلى مشكلة لم أتوقعها، وبالتالى لا أعرف كيف أحلها. إن فشلت فى مهمتى هذه سيترك هذا الفشل أثره على مستقبلى فى الوحدة. ولكى أسكت أصوات القلق التى بدأت تتصاعد فى داخلى، ذكرت له اسم الشهيد نفسه. وصاح الفلاح غاضبا لأول مرة:

ـ الدلوعة؟!

أكمل:

ـ إنه هو الابن الأخير للعمدة، يقولون عنه فى البلد الدلوعة.

ـ هل هو الذى قابلته اليوم؟

ـ هو نفسه.

ولأن الرجل أسلمنا إلى دوامة من الأفكار، تساءل بدوره:

ـ ولكن كيف استشهد وهو فى البلد؟!

قال صديق الشهيد ببطء:

ـ استشهد بالنيابة.

لم يفهم الرجل كلامه، ولا الكلمة التى ختم بها صديق الشهيد جملته:

ـ بالتوكيل الشرعى الذى اعتمدته مصر.

أوقفت السيارة. نزلت وأخذت الفلاح معى. طلبت من السائق أن يترك نور السيارة مضاء. أخرجت أوراقى، راجعت البيانات الخاصة بالشهيد: اسمه، اسم البلد، عمل الوالد، قال الرجل إن كل البيانات سليمة. ولكن الشاب الذى تقول إنه استشهد موجود فى البلد. عدنا إلى السيارة. استأنف السائق السير، خيم علينا صمت مشحون بالتوتر والقلق. حاول السائق أن يؤكد أن هذه الحكاية حدثت معه من قبل، وأنها ليست غريبة عليه. صحت فيه، توقفت الكلمة فى زوره، لم يكمل نصفها الثانى، طلبت منه الإسراع فى سيره، وسألت الفلاح للمرة الأخيرة:

ـ هل أنت متأكد؟

قال إنه ليس مطلوبا منا سوى الصبر. وقال إنه سيحضر إلىّ الشهيد بنفسه وهو حى يرزق. سألت صديق الشهيد، إن كانت البيانات الموجودة معنا سليمة. رد على بطريقة غامضة:

ـ سنرى فى البلد.

خانتنى أعصابى. فى الوحدة سألت عن كل المواقف المحتمل حدوثها، وعن طريقة التصرف فيها. لم يخطر على بالى أبدا أن أذهب لكى أجد الشهيد الذى أحمله فى صندوق مغلق حى. طلبت من السائق أن يتوقف. نزلت وفتحت الصندوق الخلفى. أمرت العريف أن يحرك الصندوق، دهش من الطلب. قلت له إنى أريد التأكد من وجود الشهيد فى مكانه. حرك الصندوق بصعوبة واقترب بوجهه من إحدى فتحاته، وأكد لى وجود الجثة فى الصندوق، وتساءل غاضبا: وهل يتصور أحد سرقة الجثة؟ لم تكن بى رغبة فى الحديث، طلبت منه أن يعطينى أمانات الشهيد الموجودة معه. فتحتها، أخذت منها بطاقة تحقيق الشخصية المدنية. ناديت على الفلاح، وفى ضوء السيارة قدمت له البطاقة. أخذها منى، قربها من عينيه، لدرجة أنى خفت عليهما من البطاقة. خيل إلىّ أنه سيدخل البطاقة فى جفنىّ عينيه. قال بانفعال:

ـ هذه صورة مصرى ابن خفير العمدة.

لم يكن الرجل يقرأ، قرأت له بيانات البطاقة. الاسم المدون هو اسم ابن العمدة.

قال الفلاح ملخصا الحكاية.

ـ الاسم لابن العمدة، ولكن الصورة لابن الخفير.

تشابكت المعانى فى ذهنى، وعصفت بى الحيرة. فكرت فى العودة إلى

الوحدة، رائحة الجثة منعتنى. وعندما امتدت يد الفلاح تشير إلى أنوار البلد وقال إننا وصلنا، حسمت الأمر بداخلى. ذهبت إلى البلد. أمام دوار العمدة توقفنا. نزلنا. جلسنا فى حجرة صغيرة بها بنادق وتليفون. قالوا إن العمدة يصلى ومعه أولاده الكبار. الفلاح الذى كان معنا اختفى ثم حضر ليؤكد لى هامسا أن العمدة الصغير موجود فى الداخل. أرسلت بطلبه، حضر إلىّ شاب منعم، سألته عن اسمه وبياناته. جاءت كلها مطابقة لما معى من بيانات. رجوته أن يطلعنى على بطاقته الشخصية. قال إن والده يحتفظ بها معه ليل نهار منذ حوالى ثلاثة أشهر، ولا يعطيها له لسبب لا يعلمه. أما عن موقفه من التجنيد فقد أكد لى أن حدود علمه أن تجنيده مؤجل لحين انتهائه من تعليمه. سألته:

ـ أين شهادة التأجيل؟

قال إنها فى المدرسة. قلت: من الذى سلمها للمدرسة؟ أجاب إن والده هو الذى أحضرها وسلمها للمدرسة. سأله صديق الشهيد:

ـ هل رأيت شهادة التأجيل بنفسك؟

ـ سمعت عنها ولم أرها، ولكن لا بد من وجودها لأنى لم أذهب إلى الجيش

حضر العمدة وخلفه أبناؤه وبعض الخفر. سلم علينا. أخرجت أوراقى وبدأت أحدثه. أذهلنى أنه لم يتأثر بالخبر، وكان كل ما يريده منى هو أن يأخذ الأوراق والأمانات والجثة وأن نمشى بسرعة. ضغطت على أعصابى وسألته:

ـ هل الشهيد ابنك فعلا؟

لم يرد علىّ بسرعة. وقبل أن يتكلم أخذنى صديق الشهيد. خرجنا بجوار السيارة، حكى لى الحكاية كلها، سألته:

ـ وهل كنت تعرف ذلك قبل التحرك؟

قال:

ـ بل قبل استشهاده.

كدت أضربه. أمسكت به، ولكن يدى تراختا. انبثق فى ذهنى سؤال لم أستطع الإجابة عليه أبدا. لماذا؟ لماذا لم ينبهنى صديق الشهيد إلى هذه الحكاية المعقدة والصعبة قبل التحرك من مصر؟ هل قصد هذا؟ لقد اعتقد أنه يقدم خدمة للشهيد وأهله من وراء ما تم. ربما كان ما فعله نوعا من الوفاء، وهذا يفسر إصراره على الحضور معنا، رغم أن الكل يتهرب من مثل هذه المهمات.

هدأنى صديق الشهيد. وقال إن المهم الآن هو مواجهة الموقف الغريب. حذرنى من سلطان العمدة وجبروته. فهمت أنه مطلوب منى تفادى أية مضاعفات للموقف. كان متحفزا كأنه يستعد لدخول معركة. ولكن غيّر الموقف دخول فلاح ممصوص الوجه ببندقية على كتفيه. كان يبكى ويصيح. تقدم منى قائلا:

ـ أنا والد الشهيد.

لا أستطيع وصف موقف العمدة بالتراجع، ولكن بالانهيار. حدث الموقف أمام عدد كبير من أهل البلد. وحول الدوار تجمعت البلد كلها. حاول العمدة إدخالى بيته فرفضت. طلب منى تحرك السيارة فورا إلى المدافن فرفضت أيضا. قال لى إننى أتسبب فى عمل تجمهر ضخم والبلد

مليئة بالعصابات وحالات الثأر القديمة، ومصر كلها تمر بظروف عصيبة، فنحن فى حالة حرب وهو غير مسئول عن أية نتائج لهذا الموقف الخطير.

كدت أن أعطيه الجثة والأوراق والأمانات وأجرى. أجرى عائدا إلى مصر وقطرات الدمع تنسال بداخلى، ولكن رعشة أصابتنى. تدخل صديق مصرى، رجانى الذهاب إلى مركز البوليس. هاج العمدة. ثار. قال إنه ممثل الحكومة فى البلد. إن كانت هناك مشكلة فهو قادر على حلها، وذهابنا إلى البوليس ونحن فى البلد الذى يحكمه إداريا بدون تحويل منه باطل قانونا. كانت أمامى ثلاثة حلول:

أن أذهب إلى مركز البوليس الذى تتبعه القرية لعمل اللازم.

مشكلتى لها جانب يخص الجيش ولهذا فالتعليمات تقضى ـ كحل ثان ـ بالبحث عن أقرب نقطة شرطة عسكرية وهم يتولون الأمر. ولكن كيف أبحث عن هذه النقطة فى ليل منطفئ حالك السواد؟

أما الحل الثالث فيتمثل فى عودتى إلى الوحدة فى مصر، وهناك يتصرف القائد فى الموقف.

كنت محتارا. أهل البلد حسموا الموقف، أثناء حديثى مع العمدة. كان الخفير قد خرج وتجمع أهالى البلد. ويبدو أنه حدثهم فزحفوا على الدوار. سمعت كلمات عن الرغبة فى تذوق دم العمدة، والانتقام، والأرض، والعرض، والإصلاح الزراعى الذى تتم تصفيته الآن وضرورة إبلاغ البوليس بما حدث.

اقترب شخص من العمدة. طلب منه التحرك بسرعة. وقبل أن يتحرك العمدة، كنت أسرع منه. أخذت أفرادى وخرجت من حجرة السلاح. ذبنا وسط بحر من الناس. دهشت من كثرتهم ولا أعرف من أين حضر هذا

العدد الضخم، وصلت إلى السيارة بصعوبة، وخلال سيرى واحتكاكى بالأجسام البشرية وصلنى الكثير من الكلام. كانوا يطلبون منى إبلاغ المركز، والسرعة فى الحركة قبل أن يعتدى علىّ رجال العمدة. القضية ثابتة، والأدلة موجودة، والعمدة متهم لأول مرة، وإن تركت الجثة سأكون المسئول أمام الدنيا. رجل واحد اقترب منى وأنا أحاول الصعود إلى السيارة. أفهمنى الأمر. أرسل العمدة ابن الخفير بدلا من ابنه إلى الجهادية. لم يعلموا إلا منذ لحظات ولا بد من كشف الأمر:

- إلى متى نسكت؟

تساءل الرجل الذى بدا لى أنه نال قسطا من التعليم. .

- حتى فى الحرب، لقد رضينا بأن يفسدوا كل ما فى مصر؛ الأرض والماء والهواء والناس. ولكن شرف الدفاع عن تراب مصر أمر آخر.

وضعتنى كلمات الرجل أمام جريمة متكاملة الأركان. شعرت أن يدى ملوثتان بدم الجثة الموجودة فى الصندوق. علىّ أن أتصرف. كانت الجريمة من نوع فريد ومبتكر؛ ليست سرقة أو قتلا أو حتى تزويرا فى أوراق رسمية، جريمة لم يخترع لها اسم بعد، لأنها لم تحدث من قبل فى مصر أو فى أى بلد من بلاد العالم. فعلا لا بد من التصرف الفورى فما دام فى مصر أمثال هذا العمدة، من يضمن أن يتكرر هذا، وإن تكرر من يدافع عن مصر مستقبلا؟

خرج العمدة ومعه رجاله، شاهدت البنادق والعصى، ولكن بحر البشر منعه من الوصول إلىّ. حضر صديق الشهيد ومعه والده. لا أعرف كيف استطعنا الجلوس معا فى المكان الضيق بجوار السائق. البكاء الخافت للرجل لم يتوقف إلا بعد أن قال له صديق مصرى إننا معه ولن نتخلى عنه وأنه سيأخذ حقه. ذلك وعد منى ومنه.

عند ذلك هدأ الرجل، وإن كنت ما زلت أرى خطين من الدمع يلمعان خلال جريانهما فى غابة تجاعيد وتجاويف وجهه الكبير. صحت فى السائق أن يتحرك. وكمعجزات الحواة أفسح بحر البشر طريقا للسيارة. ركب عدد كبير منهم على رفرف السيارة ومقدمتها، بصعوبة أفسحوا مكانا للسائق ليشاهد منه الطريق. وقبل أن تتحرك السيارة دفعها الناس بصدورهم فتحركت. انطلقت بعض الأعيرة النارية فى الهواء. لا أعرف إن كان الهدف منها إصابة السيارة أم إرهاب الناس. واتجهنا إلى المركز.

فى المركز وجدت الضابط النوبتجى شابا فى مثل سنى تزين كتفيه نجمتان مثلى، وأحد أبناء القاهرة، وإن لم يكن من الحى الذى أسكن فيه. شرحت له الموضوع باختصار، وطلبت منه إجراء تحقيق فى الأمر. كنت مرهقا، وكان تأثير الانفعال جاد على وجهى. أمر لى بكوب من الشاى. تحدث معى. عرف القضية. جاد استأذن فى الاتصال بالمأمور نظرا لخطورة الأمر. كلفه المأمور بإحضار وكيل النيابة. حضروا جميعا. أخرجوا الأوراق. وفتحوا الأقلام، وسمعت من يقول:

س: ما هى أقوالك بخصوص. .؟!

وبدأت أجيب على سؤاله.

المحقق

تستهوينى لحظة انتصاف الليل، أتعامل معها على أنها حد فاصل بين يوم انقضى أمره ويوم لا نعرف عنه سوى اسمه. الدقات الاثنتا عشرة الرتيبة من راديو قريب منى، ورائحة شتاء مقبل تنتشر فى الليل. ها هو ليل الريف فى الأيام الأخيرة من رمضان. مرت ليلة الأمس والليلة التى قبلها ولم يشاهد أحد ليلة القدر، تبقى هذه الليلة وليلة أخرى قادمة. وقد يأتى العيد بعدها والناس تعلق كل أحلامها المؤجلة. لحظة انتصاف الليل أستعد فيها للنوم. لا أعرف متى تغمض عيناى وأستريح من اليقظة الحارقة، ولكن النوم يأتى فى النهاية.

هذه الليلة حضروا من المركز. طرقات كل ليلة، استدعاء بسبب قضية قالوا إنها هامة وعلى درجة من الخطورة. تساءلت فى نفسى:

ـ وأى قضية لم يقولوا إنها هامة وخطيرة؟

سألت المخبر:

ـ هل أجرى الضابط النوبتجى فى المركز تحقيقا أوليا حول القضية؟

أجاب بالنفى. قال إنه أجرى حوارا شفهيا، ثم اتصل بالمأمور الذى حضر وأرسل لإخبارى بالأمر. وأبلغ المستشار العسكرى بالمحافظة، وأنا أرتدى ملابسى سألت المخبر:

ـ هل هى قضية قتل؟ سرقة؟ تعدى؟ هل هى حالة تجمهر؟

ضحك المخبر قائلا إنه لا يعرف القضية بالتحديد، ولكنه أكد أنه منذ

حوالى ساعة حضرت إلى المركز سيارة نقل موتى تابعة للجيش فيها شهيد، مع السيارة ضابط وبعض الجنود، وهم قادمون من إحدى قرى المركز. نظرا لطبيعة الظروف العامة أسرعت فى ارتداء ملابسى. بعد قليل كنت فى الشارع.

أعيش فى مركز صغير من مراكز الوجه البحرى. تنام فيه الحياة من العاشرة مساء، وإن كانت تسهر فى هذه الأيام بسبب رمضان . فى المركز وجدت الضابط النوبتجى والمأمور وضابط المباحث. والقضية جاهزة كما يقولون. قابلنى الضابط النوبتجى. جلست معه. طلبت منه أن يحكى لى ما حدث. ولأن ضابط البوليس الشاب كان منفعلا حزينا ساهما، فقد تكلم بإسهاب. ولأنه ليس له فصل فى الرواية، يتكلم فيه مثل الآخرين الذين تكلموا من قبل. فسأثبت هنا كل ما قاله وبنفس الطريقة التى سمعتها منه. حتى الأمور التى حكاها ولا علاقة لها بالقضية سأثبتها. استراح الضابط الشاب فى جلسته وقال لى:

ـ كنت ضابط نوبتجى المركز، لم يكن لدى ما أعمله. وقت ما بعد الإفطار فى رمضان يصبح بلا عمل. بعد أذان العشاء كنت أقف وراء زجاج مكتب النوبتجية. وضعت أنفى على الزجاج. البخار الذى خرج من أنفى غبش الزجاج. مددت يدى. رحت أخطط على الزجاج. نظرت من الخطوط. ومن خلالها شاهدت سيارة دفن موتى سوداء تسير ببطء. غرقت فى أضواء أعمدة النور فبدت ملامحها واضحة. خرجت من مساحات الضوء وذابت فى الظلام. قبيل المركز هدأت السيارة. وقفت فى الساحة الواسعة أمام المركز. وجدت اللوحة الأمامية الخاصة برقم السيارة فى لون الصحراء، ورقم السيارة مدون بالأسود وتحته كلمة الجيش. قلت لنفسى:

ـ الحكاية لها علاقة بالحرب الدائرة الآن.

خرجت من غرفة النوبتجية، وقفت على باب المركز. فتح باب السيارة، نزل منه ضابط شاب، ملازم أول صغير السن. نزل بعده جندى بملابس الميدان وفلاح متقدم فى السن، فتح باب الصندوق الخلفى للسيارة، نزل منه جنديان وشخص مدنى، بدوا جميعا وكأنهم قادمون من رحلة بعيدة. أمامى عمل يبدد فراغ الليل الطويل، كان الطقس باردا، ورغم هذا شاهدت حبات العرق على وجوه الحاضرين. قابلت الضابط بود، قدمت له ولمن حضروا معه المقاعد، جلس هو أمامى.

ـ خيرا.

ظل صامتا فترة، تكلم، أحسست أنى أمام مشكلة غريبة تحدث لأول مرة. والعمدة الذى يعد طرفا فيها من الرجال مرهوبى الجانب فى المنطقة كلها. احترت، ماذا أفعل فى مواجهة هذا الموقف الغريب؟ حمدت اللـه أن المأمور يسكن بالقرب من المركز، وأنه موجود الآن فى منزله المقابل للمركز مباشرة. قلت لنفسى:

ـ إذن أسأله كيف أتصرف.

المأمور كان قد دفأ نفسه وحجرته لسهرة شتوية، وجلس يلعب الشطرنج مع ابنه الأكبر. استأذنت واعتذرت وحكيت له الحكاية. اضطرب فى البداية، ثم تماسك وكلفنى بعمل الإجراءات القانونية. قال إنه سيحضر بعد قليل. تحفظت على الأمانات وأرسلت لإبلاغك الأمر، وقبل حضورك كان المأمور فى المركز.

بدأت التحقيق، أحضروا لى ضابط القوات المسلحة. قدم لى القضية باختصار: حضر من القاهرة لتسليم جثة شهيد معه، فوجد الإنسان الذى

يحمل اسم الشهيد حيا يرزق، وأن الجثمان الذى يحمله لشخص آخر؛ ذهب إلى الجيش بدلا من هذا الحى.

كان الضابط مرهقا، وجهه عبارة عن خطوط من التعب وقنوات العرق. تسرب إلى نفسى شك فيما يقوله. ولكن أدهشنى ذلك اليقين الغريب الذى يتحدث به. ناقشته طويلا. . استعرضت أسماء الأفراد الذين حضروا معه. بدأت بصديق الشهيد. جلس أمامى. حكى لى القصة من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الأخيرة. وأنا حائر بين الدهشة وعدم التصديق. سألت صديق الشهيد إن كانت معه أية أوراق خاصة بالشهيد، قبل أن يتحول من ابن الخفير إلى ابن العمدة. أين بطاقته الشخصية القديمة أو كرنيه المدرسة؟ طلب الاطلاع على أمانات الشهيد، قدمتها له. أخذ كرنيه تحقيق الشخصية الخاص بالجيش، وفتحه. كان مخبأ بداخله ورقة مطبقة بعناية، أخرجها وفردها أمامى. الورقة كانت استمارة نجاح فى شهادة إتمام الدراسة الإعدادية.

وضع صديق الشهيد استمارة النجاح وكرنيه تحقيق الشخصية بجوار بعضهما. كانا مثل العملة ذات الوجهين، يعكسان التناقض الأزلى بين ما يخفى وما يعرفه الناس. الكرنيه الذى يراه الجميع يقول إنه تحقيق شخصية لابن العمدة المجند فى الجيش، ولكن بجواره ورقة أخرجت من داخله، تؤكد أن ابن الخفير هو الذى ذهب إلى الجيش بدلا من ابن العمدة، فى مهمة لا يجوز التوكيل فيها أو الإنابة، مهما كانت الجهة التى تعتمد هذا التوكيل. وضعت يدى على أول الخيط الموصل إلى الحقيقة. فى استمارة النجاح كان مدرجا رقم البطاقة الشخصية الخاصة بمصرى وتاريخ استخراجها. راجعته على البطاقة الأخرى والتى وجدتها ضمن الأمانات والموجودة بها صورة مصرى ابن العمدة. كانا رقمين مختلفين وتاريخ استخراج كل

منهما يبدو مختلفا، وإن كانت الجهة التى حررتهما معا واحدة، وهى مكتب السجل المدنى بالمركز. احترت، هل استخرجت له أكثر من بطاقة.

أعترف أن هذه الواقعة الصغيرة حركت فى نفسى رغبة فى العمل والوصول إلى حقيقة الأمر. فى هذه اللحظة تنبهت. وصلت اليقظة الليلية إلى أقصى مدى لها، أسرع القلب فى دقاته ودفع إلى العروق دما جديدا. خلعت الچاكت، علقته على الشماعة. كنت أعمل بنصف حماس لأن القضية لم تكن واضحة فى ذهنى. أخرجت ورقة وكتبت فيها المطلوب سماع أقوالهم فى القضية:

١ ـ والد مصرى، الخفير النظامى السابق والمحال إلى المعاش.

٢ ـ عمدة البلد.

٣ ـ نجل العمدة الأخير والذى يحمل الشهيد اسمه.

٤ ـ مندوب تجنيد المركز الذى كان يعمل مشرفا على المكتب وقت تجنيد الشهيد.

وفى ورقة أخرى طلبت الوثائق الآتية:

١ ـ الاستمارات المحفوظة بمكتب السجل المدنى بالمركز، والتى استخرج بناء عليها كل من البطاقتين الشخصيتين مع إحضار الصورة الفوتوغرافية للحفظ. والتى تحفظ مع الاستمارات فى المكتب.

٢ ـ صورة عن شهادة ميلاد الشهيد وابن العمدة.

٣ ـ بيان بتحديد موقفهما من التجنيد، وكل الأوراق والمستندات المرتبطة بتجنيدهما مهما كانت درجة أهمية هذه المستندات.

٤ ـ بيان بالمستوى التعليمى الذى وصل إليه الشخصان، وإن كان أحدهما يتعلم الآن، ففى أية مرحلة من مراحل التعليم.

٥ ـ عمل تحريات واسعة النطاق بمعرفة السيد ضابط مباحث القسم بنفسه حول هذا الموضوع، ومعرفة أصول الحكاية من أولها إلى آخرها.

بدأت التحقيق. بعد وقت قليل حضر إلىّ مأمور المركز، طلب منى الصبر والتريث لحين وصول المستشار العسكرى فى المحافظة. سألته:

ـ وما دخل المستشار العسكرى؟

أجاب بأن القضية لها جانبها العسكرى وربما السياسى ولا بد من أخذ رأيه. أخبرته أن أمامى قضية متكاملة، سأستمر فى التحقيق، وعندما يحضر سنرى ما يمكن عمله. استأنفت العمل. ولكنه حضر إلى مرة أخرى، ونبهنى إلى ضرورة التصرف فى أمر الجثة؛ إما بالتصريح بدفنها، أو انتداب طبيب شرعى لعمل اللازم إن كان التحقيق يتطلب هذا.

تذكرت أنى نسيت أمر الجثة ويجب التصرف فيها أولا. استدعيت الضابط الذى حضر مع الجثة. اطلعت على الأوراق الخاصة بالاستشهاد. دققت وفحصت واستغرق ذلك منى وقتا. كان لى العذر؛ فالحادث الذى أحقق فيه جعل الشك يتسلل حتى إلى حقيقة أن يدى فى كل منهما خمس أصابع، وأنه فى آخر كل أصبع ظفر، وأن السماء فوق الأرض.

صرحت بدفن الجثة بعد الكشف الظاهرى عليها، مع التقاط أكثر من صورة للوجه. الصور هامة وستحسم كثيرا من الأمور فى التحقيق. ثارت مشكلة، كيف يتم الدفن والبلد تعلم بما جرى، وكيف نضمن ألا تحدث مضاعفات فى البلد؟

فوجئت بالمأمور يفضل انتظار وصول المستشار العسكرى ومندوب المحافظة وأخذ رأى التنظيم السياسى قبل الدفن. وقال لى:

- إنه يفضل - بعد موافقتى طبعا - أن تودع الجثة فى مستشفى المركز بدلا من بقائها فى السيارة بهذه الصورة.

وافقت على هذا. وفى تصورى أنى بهذا أكرم جثمان شهيد استشهد دفاعا عن أرض بلادى وعنى وعن أهلى. المؤسف أنه ظهر بعد هذا أن تصرفى كا ن خطأ، ولكن هذا موضوع آخر.

حضر الشهود، بدأت إجراءات التحقيق معهم. استمعت إلى أقوالهم. لن ألخص ما قالوه. سبق لكم أن قرأتم ذلك بالتفصيل فى الفصول السابقة من هذه الرواية. أعتقد أن مجرد الإشارة إلى ما قالوه يصبح نوعا من التكرار والإعادة، وهو ما ترفضه الرواية التى تتعامل مع قارئ قلق لا يجد وقتا للقراءة.

اعترف بعض الشهود بدون صعوبة. كان كلام والد الشهيد الحقيقى مؤثرا، مبللا بدموعه، أشاع جوا إنسانيا وصلت عدواه إلى الجميع. لم يعترف العمدة، لم أستطع استخراج كلمة واحدة منه تفيد بدوره فى الحكاية. واجهته بالخفير وعرضت عليه الأوراق الموجودة معى. ذكرت له واقعة عودة الأرض إليه ومنها مساحة أرض كانت مع الخفير، قال إن هذا لا علاقة له بالواقعة. أحيانا، كان العمدة يعجز عن الرد، ولكنه كان ثابتا راسخا، ينظر إلىَّ بعينين عاريتين من كل ندم.

وصل صوته إلىّ مستريحا، تفوح منه رائحة اللحم والسمن والدجاج والديوك الرومية. واللحم الذى ينام على وجهه ويديه يبدو طيات فوق بعضها البعض. عندما سألته عن موقف ابنه من التجنيد قال لى إن تجنيده مؤجل حتى يكمل تعليمه. طلبت منه شهادة التأجيل، قال إنه قدمها إلى المدرسة ولا يمكنه إحضارها الآن. سألته عن الجهة التى استخرجها منها، ارتبك لأول مرة. عاد ليقول إنه استخرجها من الإسكندرية. واجهته

ببطاقة تحقيق الشخصية العسكرية التى تؤكد أن ابنه مجند فى الجيش الآن، تلعثم ولم يرد.

التحقيق مع العمدة كان مباراة من النوع الثقيل، درنا حول بعضنا. حاصرته فى أكثر من موقع، كاد أن يعترف، ولكنه رفض الاعتراف. قلت لنفسى: ماذا ينتظر؟ لماذا لا يعترف ويريحنى ويريح نفسه من عناء السؤال والجواب. بدا لى أنه ينتظر. وأن الانتظار سيحمل له حلا للموقف الصعب والعصيب الذى يمر به. كنت قلقا، أما هو فكان ينظر إلى ما يحدث على أنه أمر عادى.

خلال التحقيق كانت تعذبنى مسألة واحدة، هى البحث عن العقل المدبر الذى أخرج الحكاية بكل هذا الإحكام الغريب. صحيح أنه ترك بعض الثغرات فى التنفيذ، ثغرات من نوع بسيط لا تؤدى إلى انكشاف الأمر كله.

وضعت يدى عليه أخيرا، قالوا إنه المتعهد. أكثر من شاهد أشاروا إليه بهذه الصفة. فتصورت أن المتعهد هو اسمه الأصلى، أحضروه لى بعد قليل. كان رجلا أقرب إلى الإنسان اليائس، ولهذا لم يتعبنى كثيرا، اعترف بكل ما فعله. وإن كان قد أكد لى أكثر من مرة ـ بصدق حقيقى ـ أن هذه العملية كانت الأخيرة وأن توبته نهائية. كان بودى إثبات دفاع المتعهد هنا لولا ضيق الوقت والرغبة فى الاختصار.

قال لى إنه مندهش من مجرد إجراء هذا التحقيق. إن إنسانا مصريا شهما وكريما قرر أن يقدم خدمة لإنسان آخر. ألا تسمع فى الشارع واحدا يقول للآخر: أفديك بروحى وحياتى. ألا تدعونا الدولة نفسها ومن خلال أجهزتها الرسمية إلى التطوع بدمائنا لإخواننا فى الوطن والدين، وعندما نرفض التطوع تشترى الدولة دماءنا بالثمن. هذا هو ما حدث

بالضبط، ابن الخفير قرر أن ينوب عن ابن العمدة فى مهمة وطنية، قبل القيام بها برغبته الكاملة، وإلا لكان اعترض على ذهابه بصورة من صور الاعتراض، ولن يتعرض له أحد. ثم إن هناك نقطة لا بد من الحديث عنها، لأن العمدة يرفض الإشارة إليها، لأنه كريم المنبت والأصل، ولا يحب الكلام بصوت عال وعلى مسمع من الآخرين:إن العملية تمت بتبادل مصالح، إنها مسألة اقتصادية أساسا؛ ذهب مصرى إلى الجيش بدلا من ابن العمدة نظير حصول الخفير على أمرين: أولهما: وظيفة ثابتة نظير أجر ثابت، رغم أنه يحصل على معاش، وأنت تعرف أن قوانين الدولة صارمة فى رفض بل وتجريم الجمع بين المرتب والمعاش. إن العمدة هنا لا يحسن إلى الخفير ولكنه يتستر على إنسان يخالف القوانين، ويضع نفسه تحت طائلة الجرائم المنصوص عليها فى قانون العقوبات المصرى، ولا تنس أن العمدة هو المسئول عن تنفيذ قوانين الدولة، فالمخالفة هنا لها أكثر من بعد. أما الأمر الآخر الذى حصل عليه الخفير: فهو مساحة من الأرض لا تقل عن الخمسة أفدنة. إن الإجراءات العادلة التى اتخذت فى مصر أخيرا تقرر بوضوح أن من أخذت أرضه بمعرفة الإصلاح الزراعى لا بد وأن تعود إليه.

العمدة عادت له أرضه بعد سنوات الاغتصاب، وله الحق فى استغلالها بنفسه، يؤكد بذلك عدالة الإجراءات الأخيرة وظلم الإجراءات السابقة عليها. تصور أنت فرحة العمدة بعودة أرضه إليه بعد سنوات طوال من أخذها منه ظلما وعدوانا. إن العمدة كتم هذه الفرحة فى صدره وترك الأرض للخفير برغبته الكاملة. وهذا تصرف ضد الإجراءات العادلة الأخيرة. والعمدة ترك هذه الأرض نظير الخدمة التى تطوع ابن الخفير وطلب القيام بها، دون أن يطلب أحد منه ذلك، ثم إن ابن الخفير كانت أمنية عمره أن يذهب إلى الجهادية، أقسم لك أنه حدثنى عن ذلك بنفسه،

وأنه ذهب متطوعا فرفضوه، لا أدرى سبب الرفض. الشاب كان طموحا، وطموح الطبقات الفقيرة فى أغلب الأحيان يكون مدمرا لهم، إنه يقضى عليهم عادة. كان الشاب ينظر إلى ما هو أبعد؛ أن يكون ضابطا فى يوم من الأيام، أن يزين كتفيه بالنسر والنجوم والسيف والعصا والمتقاطعتين. ولهذا ذهب، لقد ذهب لتحقيق هدف له، هو الذى طلب الذهاب. هل سيحاسب العمدة على تحقيق رغبة مواطن مصرى؟! لاحظ أنه عمدة وأب. وهنا يتداخل الخاص والعام، إنه كراعى لكل هؤلاء مسئول عن تحقيق أمنية أى منهم. إن ما فعله مع ابن الخفير يدخل ضمن مهام وظيفته كعمدة للبلد. آخر دفاع أقوله وهو يهدم القضية من أساسها:

ـ إن العمدة كان والده عمدة، وجد جده عمدة، أى أنه يدخل تحت تصنيف أولاد الناس. أما الخفير وابنه فهما من أولئك الذين يكملون عشاءهم نوما، وهو يعمل ويزرع فى أرض العمدة. فى هذه الحالة فالعمدة يمتلك الأراضى ومن عليها ومن يعمل فيها. إن ابن الخفير ملك للعمدة يتصرف فيه كيف يشاء، إنهم يعملون فى عزبة يمتلكها العمدة وله الحق فى التصرف فى كل ما فى العزبة. أنا معترض على التحقيق لأنه محاولة للهروب من مواجهة الوضع الواقعى. إن الموقف الذى يجب بحثه هو:

ـ الآن بعد أن استشهد ابن الخفير نيابة عن ابن العمدة لأى منهما يحسب هذا الاستشهاد؟

لا بد من الرجوع للجهات المسئولة ومصادر الفتوى، وقراءة التاريخ لمعرفة إن كانت هذه الواقعة قد حدثت من قبل، وإن كانت قد حدثت فكيف تصرفوا فى مواجهتها. لكى نحسم الأمر:

ـ من الذى استشهد؟ ابن الخفير الذى ذهب بنفسه، أم ابن العمدة الذى أناب شخصا آخر مكانه لكى يستشهد بدلا منه؟ ويترتب على حسم هذه المشكلة حل مشكلة أخرى ستطرح نفسها فى الأيام القادمة، وهى:

ـ من الذى يصرف مستحقات الشهيد المالية، العمدة أم الخفير؟

حتى الآن رسميا الذى يصرف هذه المستحقات ـ وهى كثيرة ـ العمدة. ولكن ما ذنب الخفير. هل نعتمد على ضمير العمدة اليقظ ونطلب منه أن يصرفها ويعطيها أو جزءا منها للخفير، وهو حر فى ذلك. أم نقسمها بين الاثنين؟ إن ما حدث لا يدخل تحت بند الجرائم، لأنه عمل مشروع. ألا يجوز الإنابة والتوكيل فى الانتخابات؟ إن الانتخاب عمل وطنى، وما دامت تجوز فيه الإنابة، فهى تجوز أيضا فى الحروب. كل هذا مضى وانقضى، ما فات مات. ولكن الذى يجب بحثه الآن هو: من الذى تصرف له مستحقات الشهيد المالية؟ تلك هى المسألة. ثم لماذا التدقيق فى كل الأمور؟ إنسان تطوع لخدمة إنسان بدمه، ما دخل الحكومة فى هذا؟ نحن نسمع أن أيام الروتين انتهت، وأننا نعيش عصر الحرية. إذن كل إنسان حر فى حياته، وفى دمه، يفعل بهما ما يشاء. وهنا إنسان ضحى بدمه بدلا من إنسان آخر، ما دخل النيابة؟! قرروا لنا من الذى يصرف الأموال أفادكم اللـه.

واجهته بأن العمدة لم يعط الأرض للخفير، وإنما استغله بصورة يحرمها القانون، إذ أعطاه ثلاثة أفدنة بالمزارعة، وهو نظام يستغل فيه العمدة الخفير. هاج وقال إن هذا الكلام غير صحيح، وإن الذين أبلغونى به جماعة مندسة هدفها الوحيد هو إفساد الجو. قلت له:

ـ إن الكلام عرفته من التحقيق، وعلى لسان الخفير نفسه. قال:

ـ إن هناك أعداء للعمدة، تحركوا ضده بعد أن رجعت الأرض إليه، هدفهم إفساد الحكاية.

صرفت المتعهد العجيب، الذى كان يدافع عن نفسه بكلامه هذا قبل دفاعه عن العمدة. ولكن كلامه عن الفصل فى مشاكل الغد، ومن الذى تصرف له المستحقات المالية، أقلقنى، أوصلنى إلى حالة من التشتت. أدركت أنه إن كان من السهل الفصل فيما حدث وأصبح ماضيا، فإن المهمة الأكثر صعوبة هى مواجهة ما سيحدث بعد ذلك . قد يكون مهما أن نسأل الآن: من الذى حارب؟ ومن الذى استشهد؟ ومن الذى صنع النصر؟ ولكن السؤال الأكثر أهمية هو: من الذى حصل على التكريم الأدبى والمستحقات المالية؟ إن السؤال ملح وهام.

اكتملت القضية بين يدى. وعلىّ الآن أن أجمع أشتاتها فى الذهن وعلى الأوراق لكى أعرف رأسى من قدمى. أخذت أرتب الوثائق. بدأت بشهادتى الميلاد، وفيهما حدث الاتفاق الوحيد بين ابن العمدة وابن الخفير، كلاهما ولد فى يوم واحد وفى بلد واحدة، وهذا دليل ثابت.

فى الوثائق الأخرى اختلفت الظروف، وذهب كل منهما فى طريق مغاير للآخر؛ فى التعليم: ابن الخفير ناجح ومتفوق، ولكنه لم يكمل تعليمه لأن والده لا يقدر على مصاريف التعليم. ابن العمدة تكرر رسوبه أكثر من سنة. فى استمارتى طلب استخراج البطاقة الشخصية: لكل منهما بيانات، ولكل منهما صورة، والصورتان مختلفتان، ملامح أحدهما تقول إنه ابن عمدة، وملامح الآخر تقول إنه ابن خفير. موقفهما من التجنيد على طرفى نقيض، ابن الخفير معفى من الخدمة لأنه الابن الوحيد على أخوة كلهن بنات، ابن العمدة مطلوب تجنيده، ومؤشر فى أوراقه أنه جند بتاريخ كذا، وتم ترحيله إلى معسكر تجنيد الإسكندرية مع مندوب، وحررت له استمارة السفر

التى تحمل رقم كذا. البصمات على الأوراق تؤكد أنها بصمات شخصين مختلفين. ها هى الأمور كلها تكتمل. لم يبق سوى اعتراف العمدة الذى أصبح موقفه ضعيفا جدا بعد شهادة المتعهد الذى يعد شريكا له. العمدة فاعل أصلى، والمتعهد مساعد.

واجهت العمدة بكل ما لدى من حقائق، الجديد فيها والقديم، فلم يتزحزح عن موقفه. رفض الاعتراف. أصدرت أمرا بالتحفظ على ابنه وعلى المتعهد. كان قرارى نوعا من الضغط المباشر أو الأخير على العمدة حتى يعترف بما حدث دون متاعب. ثار العمدة بعد القبض على ابنه ورغم هذا لم يعترف بكلمة واحدة. وبدا لى من جديد أنه ينتظر حدوث أمر ينقذه.

عند هذا الحد توقفت عن العمل. قررت أخذ راحة. كان ما أنجزته صعبا وقاسيا، وكان علىّ انتظار نتيجة التحريات التى طلبت عملها. بعد الراحة، حضر إلىّ ضابط المباحث، وبدلا من أن يقدم لى تقريرا مكتوبا أقرأه، وأقرر ضمه إلى ملف القضية، أو أعيده إليه إن كانت المعلومات الواردة فيه عادية ولا تفيد التحقيق، فوجئت به يقول لى شفهيا ما يؤكد حدوث الواقعة الأساسية، وهى إرسال ابن الخفير إلى الحرب بدلا من ابن العمدة. ولكنه يطلب منى أن لا أتعب نفسى فى هذه القضية، فهى ستحفظ فى النهاية لسببين:

ـ أولهما عرفه أثناء عمل التحريات، وهو أن العمدة رجل مسنود، والقنوات التى توصله بعلية القوم وكبار الحكام سالكة وجاهزة فى كل وقت وفى أى ظروف صعبة كانت أو سهلة. وبمجرد بدء التحقيق وتحوله إلى قضية فهو متأكد من حقيقة واحدة وهى:

ـ حفظ التحقيق مهما كان الأمر، وهذا سيتم بأحد أمرين:

ـ إما بناء على طلب والد الشهيد الحقيقى بأن تحفظ المسألة حفاظا على ذكرى الشهيد، واحتراما لقدسية استشهاده. أو أن تأتى تعليمات عليا بقفل التحقيق عند الحد الذى وصلت إليه.

أكد لى أن الاحتمال الثانى مجرد تكهن من جانبه واجتهاد خاص فى تفسير الأمور، وأنه لم يسمعه من أحد، ولكنها رؤيته الشخصية وفهمه للأمور. طلبت منه باختصار شديد أن يدون نتيجة تحرياته فى محضر رسمى، ويرفعه إلىّ عن طريق مأمور المركز. وسأتصرف بناء على ما فى التقرير من وقائع ومعلومات.

لم يكن العمدة موجودا، قيل لى إنه ذهب إلى البلد ليستريح، وإنه مستعد للحضور فى أى وقت، وتحت يده أكثر من سيارة، وفى منزله تليفون بخلاف تليفون العمدية الأميرى، الذى يوجد خط ربط بينه وبين كل تليفونات المركز والنقطة الثابتة والمديرية.

حضر إلىّ عدد كبير من فلاحى البلد. شكوا لى من مظالم العمدة التى لا تنتهى. أفهمتهم أننى أحقق فى واقعة واحدة، ولا يمكننى التطرق إلى غيرها، إلا ما له علاقة مباشرة بحكاية مصرى. ردوا علىّ بأن هذه مجرد واقعة من آلاف الوقائع التى يفعلها العمدة بهم. كل الفرق أن هذه الواقعة كشفت ووصلت إلينا.

كان بينهم شاب، قال إن جرائم العمدة كلها تندرج تحت عنوان الجرائم السياسية، وأن التعامل معها من منطلق نصوص القانون خطأ أساسى. إذ قد تمكنه الثغرات الموجودة فى نصوص القوانين ـ وهى كثيرة ـ من الهروب والإفلات. من يدرى؟!

قائمة جرائم العمدة طويلة. ليس هناك مبرر لإرفاقها بالفصل الخاص بى فى الرواية. وأنا واثق أن العمدة لم يتطرق إليها بكلمة واحدة فى الفصل

الخاص به، وهو الفصل الأول. بعد أن فكرت فى الأمر اعتبرت أن كل هؤلاء شهود إثبات وإن كان ذلك بشكل غير مباشر. خافوا من العمدة. طمأنت كلا منهم أن الأسماء ستكون معى، لن يعرفها أحد. كانوا فى نظرى احتياطى شهود قد أحتاجهم فى معركتى مع العمدة.

حضر المستشار العسكرى بالمحافظة ومندوب عن الشرطة العسكرية، تصورت أن حضورهم تم بقصد التعاون معى فى الوصول إلى حقيقة الأمر. ولكنى فوجئت بمندوب الشرطة العسكرية يأخذ علىّ أننى بدأت التحقيق فى قضية عسكرية مائة فى المائة دون حضور الشرطة العسكرية أو إخطارها، وهى جهة الاختصاص الوحيدة. قال إن الضابط والجنود الذين أعطونى أقوالهم سيحاسبون؛ فقانون الأحكام العسكرية واضح وصريح من عدم التحقيق مع فرد من أفراد القوات المسلحة إلا بحضور مندوب من الجيش. قال إن القوانين تفرض أن يتم التحقيق من جديد بمعرفتهم وتحت إشرافهم، رفضت هذا، قلت إن الواقعة كلها تمت هنا. بعيدا عن المعسكرات والجيش ولا بد من المضى فى التحقيق حتى نهايته وليكن ما يكون.

فجأة أتت التعليمات صريحة وواضحة بقفل التحقيق واعتباره كأن لم يكن ودفن الجثة، وقد دفنت بمجرد صدور التعليمات ودون الحصول على إذن منى بدفنها، وقد سبب ذلك لى حزنا شخصيا. فقد دفن الشهيد على أنه ابن العمدة وليس على أنه مصرى ابن الخفير. ورغم أن هذا الوضع نتج عنه أمران كلاهما أخطر من الآخر: فكونه دفن على أنه ابن العمدة مسألة مضحكة، ذلك أن إنسانا آخر يحمل اسمه ونفس بياناته لا يزال يعيش حتى هذه اللحظة، وهذا معناه أن هناك شخصين يحملان اسما واحدا، أحدهما مات والآخر لا يزال حيا، وسيكون من الصعب مستقبلا إثبات أيهما كان الأصل ومن البديل. أما الأمر الآخر فهو مصرى: أين هو؟ الواقع أن هذه

المشكلة لم تنشأ بالدفن، فقد وجدت منذ فترة، بالتحديد منذ سافر مصرى على أنه ابن العمدة وهو يواجه مشكلة إثبات وجوده.

ويبقى المعنى الأساسى وهو أن مصرى الذى سافر وجند وحارب واستشهد حرم حتى من أن تعامل ذكراه معاملة الشهداء. حاولت إيضاح كل هذه الأمور، ولكن المستشار العسكرى للمحافظة رفضها، قال إن بلادنا تمر بفترة مصيرية وحاسمة. أليست هذه أول مرة فى التاريخ كله القديم والوسيط والحديث ينتصر فيها العرب؟ إن حادثة مصرى من الممكن أن تلقى بظلال كئيبة على النصر الذى انتظرته مصر والعرب آلاف السنين.

طلب منى التفكير فيما سيفعله أعداء مصر عندما يعلمون بحكاية مصرى. ثم هل هى حكاية ضخمة وتستحق كل هذا الاهتمام؟ إن الدول والمجتمعات فى تقدمها وتطورها تسحق آلاف الأفراد وحياتهم، وكل هذا فى سبيل أن يبقى المجموع وأن تستمر الحياة. يكفى مصرى أنه استشهد فى سبيل بلاده، لا يهم بأى الأسماء استشهد. المهم أنه قدم دمه فداء لبلاده وأهله وناسه. أما كيف قدمه؟ فتلك مسألة ثانوية، هل قدمه على أنه مصرى أو على أنه ابن العمدة. لا تنس يا حضرة أن مصر كلها ساعتها كانت توصف بجملة واحدة: عندما يصير الكل فى واحد. الكل فى واحد، هل فهمت معنى أن تذوب ملامح الأفراد وأن يصبح الكل واحدا. بودى أن يفهم أبناء الأجيال الحالية معانى الوطنية، وأن يعرفوا معنى أن يصير الكل فى واحد.

عارضته فى قفل التحقيق. ولم أتصور للحظة واحدة، كيف يعتبر أن الأمر كأنه لم يكن. أنا رجل محقق والوصول للحقيقة عملى الوحيد، وكمحقق تكون لى لحظات سعادة ولحظات غضب، وأسباب الغضب

والسعادة أمور تخصنى وحدى. القضية التى كنت أحقق فيها لها طبيعة خاصة تدفع المحقق لأن يقطع قلبه من الجرى ورائها. ولكنى كلما اقتربت من الحقيقة أجدها تلاعبنى لعبة «الأستغماية»، كنا كمن يجرى فى متاهة. وإن كانت سعادتى تتمثل فى الوصول إلى الحقيقة، فإن التوهان عنها والعجز عن الإمساك بها يسبب لى كدرًا غريبًا، وهمًا فى ثقل الرصاص. تُرى لماذا ألف وأدور وأنا أقترب من أخطر ما سأقوله فى القسم الخاص بى من الرواية؟

لأقل ما عندى إذن، والذى حدث أننى وأنا غارق فى القضية ـ سين وجيم وأوراق وتقارير ـ إذا بمسئول كبير يطلبنى. فرحت، قلت إن القضية قد سمعت؛ أى وصلت إلى أسماع من بيدهم الأمر والنهى. وهذا دليل أهميتها من ناحية، وضمان حصول المظلوم على حقه والقصاص من الظالم من ناحية أخرى. تركت ما بيدى وذهبت إلى المسئول الكبير. ركبت سيارة فاخرة، ضغط السائق على زر بجواره فتحرك زجاج الأبواب صاعدا وهابطا، وكان أمامى تليفون فى بياض الحليب، وكان جو السيارة الداخلى يوحى بأنه جو مختلف عن كل الأجواء الأخرى التى عشت فيها من قبل. سألت السائق عن السر فى جو السيارة المعطر. ويبدو أنه لم يشأ أن يشغل نفسه بعناء الرد علىّ، وأشار بيده إلى جهاز صغير ومعقد موضوع فى مقدمة السيارة، استفهمت منه مرة أخرى، قال كلمتين فقط تاركا مهمة الباقى على:

ـ جهاز تكييف.

أدركت أن السيارة مكيفة الهواء. ساعدنى الجو على الاسترخاء، وبدأت أفكر فى حكايتى مع القضية. كنت سعيدا. قلت إننا نعيش بالفعل فى عصر ذهبى. ها هم كبار المسئولين يهتمون بمثل هذه القضايا. وتلك

أهم صفات الحاكم: أن يصل العدل إلى أقل الناس. إن الذى قال إن العدل أساس الملك، والحاكم العادل هو الذى لا يغمض له جفن مهما حدث ما دام فى رعيته شخص جائع أو عار بلا مأوى، كان يدرك سر الفارق بين الحاكم الصالح وسواه من الحكام. تذكرت كل هذا. فقلت:

ـ ما بالك بالقضية التى أحقق فيها اليوم، إنها تهز الجبال، فهى متصلة بالدم الذى سال دفاعا عن بلدى ولم يجف بعد، إن رائحة اختلاطه برمال الصحراء ما زالت تملأ الأنوف.

وصلت إلى المسئول الكبير. خيل إلىّ أن السيارة جزء متحرك من مكتبه، أو أن مكتبه هو الجزء الثابت من السيارة؛ الجو المعطر، والهواء الدافئ، والألوان التى هى أقرب إلى ألوان الطيف. قابلنى المسئول الكبير مقابلة لا طعم لها. لم أعرف إن كانت هذه هى طريقته فى الترحيب بالناس أم أنه تعمد هذا معى. لم أتكلم. انتظرت حتى يسألنى، لكى أقول له إنى أوشكت على الانتهاء من التحقيق القانونى، لم يبق أمامى حتى تكتمل القضية سوى اعتراف العمدة، وحتى هذا الاعتراف لم يعد هاما؛ ما قاله الشهود يرقى إلى مستوى الاعتراف. تذكرت دفاع المتعهد وهو شريك العمدة فى المسألة من أولها إلى آخرها، والذى يكاد أن يكون اعترافا كاملا من شخص يعد من الناحية القانونية شريكا من الدرجة الأولى.

قررت أن أطلب من المسئول الكبير ـ عندما يعطينى الفرصة لكى أتكلم ـ أن تكون المحاكمة سريعة وحاسمة، وأن يصدر الحكم خلال عشرة أيام على الأكثر، وذلك لارتباط القضية بالدفاع عن الوطن. قام المسئول الكبير من فوق معقده، تحرك، خرج من وراء مكتبه الفخم، مشى، اقترب من إحدى النوافذ، شد الستارة التى تغطى الزجاج، أعطانى ظهره وبدأ ينظر إلى ميدان صغير يطل عليه المكتب. كانت بواكير الشتاء تفاجئ الناس

بلسعات برد لم يتعودوها بعد. ابتسم المسئول الكبير. تحولت الابتسامة إلى مشروع ضحكة على وجهه. قطعها واستدار ناحيتى وسألنى بسرعة:

ـ متى تنتهى من الموضوع الذى تحقق فيه؟

اعتدلت فى جلستى، تنحنحت، بلعت ريقى، وقبل أن أتكلم قال لى:

ـ هل تنوى أن تخطب، تكلم. هل انتهيت من التحقيق أم لا؟

قلت محاولا تهدئة الموقف:

ـ هناك جزء أخير ناقص؛ اعتراف الجانى أو الفاعل الأصلى فى الجريمة، وتلك المسألة سأنتهى منها اليوم أو غدا على الأكثر.

ـ وهل هناك صعوبة فى أن يعترف اليوم؟

ـ إنه يرفض الاعتراف رغم وجود شهود إثبات.

ـ وما قيمة اعترافه إذن؟

ـ فى المحاكمة السريعة التى أرجو أن تتم، يصبح عدم الاعتراف عيبا فى إجراءات التحقيق. وفى هذه الحالة قد يطلب القاضى إعادة التحقيق من جديد، أو أن يحقق بنفسه، وهذا يميع المسألة.

تساءل المسئول الكبير بدهشة:

ـ محاكمة؟!

قلت ببساطة:

ـ طبعا، المفروض بعد تحقيق النيابة أن يحال الأمر للقضاء.

ـ أى أمر؟!

ـ قضية الشهيد التى أحقق فيها.

ـ أى شهيد؟!

ـ مصرى ابن الخفير.

ـ أى خفير؟!

ـ الذى ذهب ابنه إلى الجيش بدلا من ابن العمدة.

ـ أى عمدة؟!

ـ عمدة البلد الذى يقولون عنه إنه رجل مسنود ولكن جريمته واضحة.

ـ أى وضوح؟!

ـ وضوح أركان الجريمة: الجانى، والشهود، والأدلة المادية، والضحية.

ـ أى ضحية؟!

ـ أقصد الضحايا.

ارتفع صوته أكثر هذه المرة:

ـ عم تتكلم يا حضرة؟!

قررت ألا أرد. بدا موقفنا أقرب إلى العبث. تساءلت بينى وبين نفسى:

ـ ماذا يقصد هذا المسئول الكبير بالضبط، وهل أرسل يستدعينى أنا أم أنه يقصد شخصا آخر بالاستدعاء؟!

تسلل إلى نفسى ضعف غريب. وبدا لى موقفى صعبا لدرجة لا توصف. فكرت أن أصيح، أصرخ، أجرى، أهجم عليه، ولكن منعتنى ضخامة المكتب، والإجراءات الأمنية التى تمت حتى أحضرتنى، وشخصيته المجهولة. فى طريقى إليه سألتهم:

ـ أنا ذاهب لمقابلة من؟

ردوا على باختصار:

ـ مسئول كبير.

سألت:

ـ من هو؟ ومسئول عن من أو عن أى القطاعات فى بلادى؟

رددوا نفس الإجابة:

ـ مسئول كبير.

أشار بيده نحوى:

ـ اسمع.

لم أرد. أكمل هو:

ـ لا توجد قضية ولا غيره. الفلاحون فى البلد ضحكوا عليك، لفقوا لك قصة محكمة مثل الروايات البوليسية. ابن الخفير ذهب إلى الجيش ولأنه يدرك وضاعة أصله، ويريد أن يتمسح فى الكبار أولاد الذوات أملى بياناته من اليوم الأول خطأ، نسب نفسه إلى العمدة. قال إنه ابنه أبا عن جد. لهذا عندما استشهد تم هذا الاستشهاد بالاسم الذى ارتضاه لنفسه، برغبته الكاملة. هذا كل ما حدث، ولهذا سيقيد استشهاده بموجب هذا الاسم. ودفنه على هذا الأساس؛ على أنه ابن العمدة. هل سمعتنى؟ لا

توجد قضية. شاب استشهد. هذا كلام جميل. وله مكانه فى الجنة. كونه قد أخطأ قبل استشهاده مدفوعا بالطمع فى اسم العائلة الكبيرة، تلك ليست مشكلتنا أبدا. ثم من الذى أصدر لك الأمر بعمل هذا التحقيق؟ ستقول لى إن هناك بلاغا مقدما من مواطن إلى البوليس، وأن البوليس أجرى التحقيق الابتدائى ثم حول الأمر إلى النيابة لكى تحقق. هذا كله كلام سليم من ناحية الإجراءات. ولكنك ارتكبت أكثر من خطأ جسيم:

أولا: عرفت منذ البداية أن القضية ليست مدنية، فيها جانب عسكرى يكاد يصل إلى ٩٠٪ منها، بل إن القضية كلها عسكرية، وما دام جيشنا إحدى الجهات المستقلة التى لها شرطتها ومحققوها ومحاكمها ـ والأهم من كل هذا ـ ألا تعرف أن لها قانونها الخاص، والذى يختلف عن قوانين الأحكام المدنية. ورغم هذا بدأت التحقيق على الفور ولم تقم بأية محاولة للاتصال بالجهات العسكرية المسئولة وهى قريبة منك، وكانت ستتولى الأمر كله نيابة عنك.

ثانيا: سأفترض أنك اندفعت فى التحقيق بحسك الوطنى وبحساسية وظيفتك، أمامك جريمة كما تتصور وتصر على هذا التصور. إذن لا بد من التحقيق فيها. هذا سليم. ولكن هل يجوز أن يكون التحقيق فى كل القضايا علنيا، تعرفه كل الأطراف المشتركة فى القضية؟ لا أعتقد. فى هذه النقطة سأختلف معك على طول الخط؛ فى بعض القضايا لا بد من سرية التحقيق. وقضية اليوم على رأس القضايا التى لا بد وأن تكون سرية. إن الحرب التى استشهد فيها مصرى ما زالت قائمة حتى اللحظة التى نتكلم فيها الآن. لقد قبلنا وقف إطلاق النار. هذا صحيح، ولكن لوقت محدد. لا بد من تحرير كل الأرض. وهذا معناه أننا ما زلنا فى حالة حرب مع أعداء الوطن؛أى أن البلاد كلها فى حالة طوارئ. وكان يجب مرعاة سرية التحقيق. أنت تعلم أن كل بيت مصرى ذهب أحد أبنائه إلى حرب

التحرير، وأرجو أن تتصور موقف هذا البيت عندما تكون الحرب ما زالت دائرة وهم يرون جثة شهيد من شهداء الحرب تلف وتدور فى البلاد، ولا تجد من يدفنها، بحجة أن هناك تحقيقا يجرى حول من صاحب هذه الجثة، ومن يدفنها، ومن الذى سيصرف المستحقات المالية. إن سرية التحقيق مطلب وطنى لا يقل عن الحرب نفسها. ثم من يضمن لنا أن تكون هذه الحرب هى الأخيرة، هل تضمن هذا أنت؟ أو أية جهة أخرى؟ من المؤكد أننا سنحارب فى الغد القريب وسنحارب فى الغد البعيد. ولتحقيقك هذا أثره السيئ إن قامت حرب أخرى جديدة. وهل تتصور تأثير القضية لو علم بها الناس والرأى العام داخل البلاد وخارجها. إنها ستلقى بظلال غريبة على حربنا وانتصارنا وأبطالنا، ولمصلحة من هذا؟ لمصلحة الخفير وابنه. لقد كان مطلوبا من كل مصرى أن يضحى. وقد ضحى الخفير بابنه فشكرا له. لقد فكرنا فى الأمر طويلا، وكان هناك اتجاه قوى لمعاقبتك على هذه الأخطاء القاتلة، ولكنى وقفت ضد هذا الاتجاه، لسبب بسيط وهو أنى متأكد من حسن نواياك، وأنك لم ترتكب أيا من هذه الأخطاء بسوء نية مسبق.

إليك قرارى:

ـ اعتبار التحقيق كأنه لم يكن، وقفل المحضر، وإحضار أوراق التحقيق إلى هنا. وقد أعطيت تعليماتى لكل الجهات بعمل اللازم.

رفع يده بحركة مسرحية، وصاح قائلا:

ـ الآن انتهت المقابلة.

امتدت أياد خفية من الخارج فتحت الباب، أشار المسئول بيده ناحية الباب، فهمت أنه يطلب منى الخروج. خرجت وأنا أرتجف من

الاضطراب. ذهبت إلى مكتبى فورا. وهناك وجدت الأوامر الصارمة من المسئول الكبير الغامض الملامح والاسم والوظيفة والشخصية قد سبقتنى بوقت طويل. ويبدو أن الرسول الذى طلبنى كان هو نفسه الذى حمل التعليمات النهائية. وبناء عليها وجدت أن المأمور صرف الجناة والضحايا والشهود وأفرج عن ابن العمدة. كل ما وجدته فى انتظارى كان أوراق ومستندات التحقيق، لأننى كنت قد وضعتها فى مكان أمين أغلقته جيدا، جمعت الأوراق، قررت التحفظ عليها بمعرفتى لحين مقابلة رؤسائى لعرض الأمر عليهم ومعرفة ما يجب عمله.

من ناحيتى كان موقفى المبدئى أنه لا بد من المضى فى التحقيق إلى نهايته الطبيعية، مهما كانت الظروف. المسألة أنه بين يدى قضية كاملة الأركان، كان يجب. ولكن المشكلة تكمن فى كلمة يجب هذه. من منا يملك حق استخدامها ضمن مفردات لغته اليومية، لست من الذين لهم الحق فى استخدام كلمة يجب. لم أقدم أوراق انتسابى لحزب يجب فى مصر. ويبدو أن شروط العضوية لا تنطبق علىّ. قبل أن أترك مكتبى متجها إلى منزلى، مؤجلا مقابلة رؤسائى إلى الغد، أخذت أوراق القضية، وضعتها فى حقيبتى. قررت أخذها معى أينما ذهبت.

فجأة، دخل علىّ والد الشهيد الحقيقى، أقصد الخفير. كان شخصا آخر، تبدل خلال هذا الوقت. تكلم، قال إنه يعلم أننا لن نستطيع فعل أى شىء للعمدة. قلت له:

ـ إن ذلك غير صحيح وإن العدالة ستأخذ مجراها، ولا يوجد أحد فى بلادنا كلها الآن فوق المساءلة القانونية.

سخرت من نفسى عندما أدركت أن الواقف أمامى لن يفهم هذه الكلمات إطلاقا. حاولت تخفيف حدة الموقف. سألته عمن قال له إننا

سنعجز عن اتخاذ إجراء ضد العمدة. قال إن من قال له الكلام ليس شخصا معينا. كل الناس أكدوا له هذه الحقيقة. ولهذا حضر إلىّ مخالفا بذلك تعليمات السيد المأمور، الذى نبه عليهم بعدم مغادرة بلدهم لأى سبب، وعدم الحضور إلى المركز. قدم الخفير إلىّ ليطلب طلبين، لن يطلب غيرهما: أولهما:

- إنه بصفته والد الشهيد الحقيقى يطلب تسليمه جثة ابنه يدفنها بنفسه وفى مكان يعرفه حتى يستطيع القيام بالواجب نحو ذكرى الشهيد مستقبلا. والثانى:

- إنه يطلب الحقوق المالية والتى ستصرف لابنه. وأكثر من هذا لن يطلب أية مطالب ويكفيه هذا.

اقتنعت بمطالب الرجل، وكان المفروض أن أصدر تعليمات بذلك، ولكنى آثرت التفاهم مع المأمور وباقى المسئولين. ذهبت إلى المأمور، وبمجرد أن كلمته فى ذلك الموضوع، بان الغضب على وجهه. لم يعجبه مجرد اهتمامى بأمر انتهينا منه. وبعد أن استمع لكلامى بنفاد صبر، قال لى إنه كان يتصور أننا انتهينا من تلك الحكاية الغريبة التى أفسدت عليه شخصيا تذوق طعم حلاوة النصر. تحدث عن الجثة. قال إنه صحيح قانونا وشرعا أن تسلم جثة الشهيد إلى أهله، ولكننا فى حالة فريدة، تجعل نص القانون غير واجب التنفيذ. لمن تسلم الجثة؟ إن سلمناها للعمدة وقف الخفير أمامنا، ومعه أدلة على أن الشهيد ابنه، لن يقف الخفير بمفرده، قد يتحرك معه أهل البلد. وفى هذه الحالة لا أضمن السيطرة على الأمور بسهولة. وإن سلمنا الشهيد للخفير فلا بد من اتخاذ إجراءات ضد العمدة وابنه. وهو يعيدنا إلى القضية التى صدرت تعليمات واضحة وصريحة بالانتهاء منها واعتبارها كأنها لم تكن. إذن، الحل السليم هو تأجيل تسليم الجثة لأى من

الطرفين فى الوقت الحالى. على الأقل إلى أن تهدأ الأمور وتمضى فترة زمنية ينسى الناس خلالها ما حدث. ثم تسلم الجثة لمن يتضح لنا أنه صاحبها الفعلى.

وإلى أن يحدث هذا، الجثة فى عهدتنا. دفناها فى مكان أمين أعرفه أنا شخصيا. وهى فى الحفظ والصون. صدقنى إن نقل الجثة لن يجلب لنا سوى المتاعب التى قد تصل أخطارها إلى الإطاحة بنا. لا أستطيع الذهاب إلى البلد ومعى الجثة، لا أحد يعرف ما قد ينتج عن هذا. يبقى الطلب الثانى سأتصل بالمسئولين لمعرفة طريقة التصرف فيه. رفع سماعة التليفون الأميرى الموضوع بجواره، ولكى لا أسمع طلب همسا إيصاله بسكرتارية أحد المسئولين. بعد قليل بدأ كلامه بالاعتذار، وقال إن هذا آخر استفسار فى تلك المسألة. سأله الصوت من الناحية الأخرى:

ـ أية مسألة؟

قال إنها حكاية ادعاء خفير كذبا استشهاد ابنه بدلا من ابن العمدة. فتحت فمى لأصحح الأمر. أشار بيده أن أسكت. مرت فترة صمت، كان يسمع فيها كلمات كثيرة، وعد بعدها المتحدث أن هذا هو السؤال الأخير. سمع التعليقات الأخيرة. وضع سماعة التليفون وجفف حبات العرق فوق جبينه. قال إنه سأل الجهات العليا وقد استغربوا لمجرد السؤال والبحث والتحرى. إذا كنا قد اعتبرنا التحقيق كأنه لم يكن، تصرف المستحقات لوالد الشهيد فى أوراق الحكومة وهو العمدة، ولا يصرف للخفير مليم واحد، إلا بموافقة العمدة. وحتى فى هذه الحالة، تصرف للعمدة وهو الذى يعطيها للخفير، أو يقوم بعمل توكيل رسمى للخفير فيصرفها نيابة

عنه. حاولت مناقشته. قمنا بالاتصال بالعمدة. سألناه عن مصير المرتب والمكافأة. هل يتنازل عن بعضها للخفير؟

دهشت عندما رفض العمدة ذلك، قال إنها مبالغ تافهة وتعد ملاليم بالنسبة لثروته، ولكنه لن يتنازل عنها؛ لأنه لن يستدرج إلى الفخ الذى نعده له. تنازله معناه أنه ارتكب بالفعل جريمة تزوير. والتنازل يتساوى مع الاعتراف الذى هو سيد الأدلة ضده، ولكنه يعدنا أنه بعد حصوله على الأموال قد يعطى الخفير صدقة أو مساعدة. وهو لن يعطيه وحده، حتى لا يفسر هذا الموقف ضده. سيعطى الفقراء والمحتاجين من حر ماله، وليس من أموال الشهيد، ولن يقبل مناقشة أكثر من هذا.

استأذنت من المأمور لأبلغ الخفير بهذا. طلب منى المأمور البقاء. استدعى الخفير الذى حياه وعامله على أنه أهم رجل فى العالم. أبلغه بتعليمات محددة وبلغة مدببة قراراته:

- سيؤجل تسليم الجثة - وهى أمانة عند المأمور شخصيا - بعض الوقت. أما الأموال:

- اتفقنا مع العمدة أن يراعى ضميره فيها، والعمدة لن يتركه يخرج من المولد بدون حمص. عليه الذهاب إليه. العمدة رجل ابن ناس، ومن أصول بعيدة ولن يظلمه.

رفع الخفير السابق يده بالتحية التى لم ينسها. خبط الأرض بقدمه وقال تعليمات ممطوطة:

- أوامر سعادة البيك المأمور تنفذ.

انسحب الخفير من المكتب الواسع بظهره. اصطدم فى تقهقره ببارفان

كاد أن يقع على الأرض، ولكنه استدار بسرعة وأمسك به قبل أن يقع، وخرج. عند ذهابى إلى حجرتى كان الخفير ينتظرنى على بابها. حلفنى أن أطمئنه على جثة ابنه. طمأنته، أكدت له أنه سيتسلمها بعد أن تهدأ الأمور. قلت هذا، رغم أنى أنا نفسى لا أعرف مكانها فى مقابر مصر كلها. وعندما أبدى مخاوفه من أن العمدة لن يعطيه مليما واحدا. وقفت خلف مكتبى. وخرج من حلقى صوت غريب علىّ، صوت الأيام التى مضت، ولن تعود، قبل أن ينكسر ما بداخلى. قلت ـ ببطء ـ إن العمدة سيعطيه كل ما سيأخذه وإن لم يعطه فأنا موجود، وأنا قادر على إرغام العمدة. دعا لى الرجل من قلبه وكان صادقا. سعدت لأنى أسعدته، رغم إيمانى الكامل بعجزى عن تنفيذ ما وعدت به.

حيانى الرجل وانصرف. وإن كان اطمئنانه يبدو كطلاء خارجى لبيت متهدم. جلست أسأل نفسى:

ـ ألست مشتركا فيما حدث كله؟ بل إنى أعد فاعلا أصليا؟ كان يجب علىّ إصدار قراراتى منفصلا عن الجميع، وكان يجب عزل هذه الحادثة عن الحاصل فى بلادنا الآن. عدت من جديد إلى كلمة يجب، ونسيت أنى لست من الذين لهم حق استعمالها. وحتى لو أصدرت تعليماتى، هل كانت ستنفذ؟أشك فى هذا، ولكن مجرد صدورها كان سيحمل إلىّ قدرا من الراحة الداخلية واحترامى لنفسى فى الأيام القادمة.

فى الطريق إلى منزلى كنت هادئا، على الأقل بقيت معى أوراق التحقيق ووثائقه ومستنداته، سأحتفظ بها معى. لن أتركها مهما كانت الظروف فى المستقبل. سيرى الهادئ وصمت آخر الليل ذكرانى بسعادتى الليلية عندما

كنت أنتهى من قضية ما، فى كل مرة كنت أهمس لنفسى فى صمت الشوارع المهجورة، مرددا كلمة أمى التى كانت تقولها لى فى الطفولة البعيدة:

ـ توتة. . توتة. . وانتهت الحدوتة.

حاولت أن أهمس بذلك لنفسى، قلت:

ـ توتة. . توتة. .

ثم توقفت. رددت الكلمتين توتة، توتة. توقفت من جديد وسألت نفسى:

ـ ولكن هل انتهت الحدوتة؟

وما دام الذى وجهته لنفسى سؤالا، فمن حقه أن تكون له إجابة شافية ووافية وقاطعة ومقنعة، ولأنه ليس بداخلى تلك الإجابة فى هذه اللحظات، فسأبدأ الآن رحلة بحث عن الإجابة، وإن عجزت، سأخرج السؤال من صدرى، وأطلقه يلف فى ربوع بر مصر، باحثا لنفسه عن الإجابة، وبعد أن يبدأ السؤال رحلته، سألاحقه بسؤال آخر، ترى هل يجد الإجابة؟!

لمحمد يوسف القعيد أعمال روائية كثيرة صدرت فى السنوات الفائتة التزم فيها الكاتب خطًّا واقعيًّا. حيث كان الصوت يخرج همسًا وأحيانًا وشوشة عالية. لكنه هنا ارتفع إلى حد الصراخ. وإذا كان قد اتضح قصدنا من تحديد الصراخ فيجب أن نعرف أن القعيد لم يكتب كلامًا حماسيًّا ولا كلامًا عاطفيًّا. وإنما الكلام الذى ينطلق من واقع معين ليتجمع فى شكل كتابى، فى صورة تلاصق شبكة مخيلتك حتى أثناء النوم.

عصام محفوظ

النهار

6 221102 023139

دار الشروق
www.shorouk.com